الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عبد الحميد بن باديس-مستغانم-

كليـــــة الآداب والفنون
قسم اللغة العربية وآدابها

مذكرة لنيل شهادة الماجستير تخصص النّقد المغاربي -التراث والحداثة-

أدب الرحلة في الجزائر
"عبد الرّزاق بن حمادوش أنموذجا"

من إعداد الطالبة:
* بحري نصيرة

بإشراف الأستاذ:
* قادة محمد

2015-2014

شكر وتقدير

أتقدم بالشكر الجزيل، والامتنان العظيم إلى أستاذي الفاضل الدكتور "قادة محمد"، الذّي أسهم في توجيهي وتصويب بحثي وبذل لي من وقته رغم مشاغله الكثيرة وأضاء لي بنير فكره ما دجى من دروب هذا البحث ورعاه حتّى ضرب جذوره في الأرض وامتّد بساقه ليرى النور فبارك الله فيه وأجزل له المثوبة والعطاء . كما أتقدّم بشكري الخالص إلى كلّ أساتذتي وأخصّ بالذّكر الأستاذة"منى علام"التي كانت لي نعم سند ومعين كما أشكر السادة أعضاء لجنة المناقشة على رضاهم بتقييم هذا العمل وحرصهم على تقويمه .

الطالبة: بحري نصيرة.

المقدّمـــــــة

يعدّ أدب الرحلة من الأنواع الأدبية التي اتّسمت بمميّزاتها وطابعها الخاص ذلك أنّ مضمونها يتعرّض لمختلف نواحي الحياة السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية، الثقافية، الدينية...إلخ ، غير أنّها لم تحظ بالدراسة التي تستحقها مثلما حظيت الأنواع أو الفنون الأدبية الأخرى كالقصة والرواية وغيرها، خاصة في الأدب الجزائري إذ ليست ثمّة دراسة نقدية حقيقية توفي هذا النوع حقّه، خاصة إذا ما تعلّق الأمر برحلة عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، إذ لا يعثر الباحث على دراسة نقدية معمّقة لرحلته، باستثناء ما ورد في كتابات أبو القاسم سعد الله وبعض الآراء المتناثرة في ثنايا كتب أخرى.

وما زاد من اهتمامي وإقبالي على دراسة هذه الرحلة قراءتي لرسالة الدكتوراه للباحث عمر بن قينة الموسومة بـ" أدب الرحلة في النثر الجزائري الحديث"، حيث نجده يتحدّث عن أهّم الرحلات الجزائرية القديمة كتمهيد لدراسته غير أنّه لم يخصّص في بحثه هذا مجالا للحديث عن رحلة ابن حمادوش رغم أنّها تستحّق الدراسة والبحث، الأمر الذي أثار فينا جملة من التساؤلات عن سبب هذا الإقصاء.

كما أننّا لم نعثر على أيّ دراسة نقدية لهذه الرحلة باستثناء ما قدّمته الباحثة مقدّم فاطمة في بحثها الموسوم بـ" الخصائص السردية في رحلة ابن حمادوش" حيث ركّزت في دراستها على الجوانب السردية في الرحلة دون أن تتعداها.

وعليه ارتأيت الخوض في هذا الموضوع بغرض التنقيب في ثناياه وإبرازه إلى الوجود ومن هنا جاء موضوع بحثي موسوما بـ " **أدب الرحلة في الجزائر عبد الرزاق بن حمادوش أنموذجا**".

ولم يكن اختيارنا لهذا الموضوع وليد الصدفة بل كان نتيجة تضافر مجموعة من العوامل ذاتية وموضوعية، أمّا الذاتية فتتلّخص في ميلي واهتمامي بالأدب الجزائري عامة وبأدب الرحلة على وجه الخصوص.

وأمّا الموضوعية فتتمثّل في قلّة الدراسات الخاصة بأدب الرحلة في الجزائر، إذ كثيرا ما ينصّب الاهتمام على دراسة الأدب المشرقي، وهذا ما حرّك الرغبة في نفسي لولوجه والتّعمّق فيه، خاصّة بعد أن اتّضح لي بأنّه موضوع بكر لم يحظ بدراسة جادة ومستقلّة، وإن جاء الحديث عنه جزئيا في ثنايا الكتب، رغم أنّه لون أدبي مستقّل له مكانته في الأدب الجزائري.

وما ثراء المادة وتنوعها وارتباطها بالقضايا الوطنية والإنسانية إلاّ دافعا أساسيا في ذلك وكذا قلّة الاهتمام برحلة ابن حمادوش وتجاهلها من طرف الباحثين ولعلّ الغاية من دراستنا لهذه الرحلة أيضا إثراء الطابع المحلي.

ولإبراز مدى مساهمة الجزائريين في الأدب الرحلي ارتأيت أن أركّز اهتمامي على رحلة جزائرية وهي رحلة عبد الرزاق بن حمادوش الموسومة بـ" **لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال**" وقد أثار هذا البحث فينا مجموعة من التساؤلات لعلّ أهمّها: ما مفهوم

أدب الرحلة ؟ وما مدى مساهمة الجزائريين فيه؟ وما موقع الرحلة من مسألة الأجناس؟ وما هو البناء الفني لرحلة ابن حمادوش ؟ وكيف تبدو صورة الجزائر والمغرب من خلالها؟

كلّ هذه التساؤلات وأخرى سعى هذا البحث للإجابة عنها، ولمّا كان المنهج ضروريا في البحث فلا مندوحة لنا من الاعتراف بأن تناول أدب الرحلات أو بالأحرى رحلة ابن حمادوش لا يمكن أن يتّم وفق منهج واحد ذلك أن هجانة نص الرحلة وتعدّد موضوعاتها فرضت علينا أن ندرسها بمنهج هجين أيضا فقد اعتمدنا في دراستنا لنشأة الرحلة على المنهج التاريخي واعتمدنا في دراسة البناء الفني على بعض خصائص المنهج البنيوي وفي دراسة العنوان على المنهج السيميائي كما اعتمدنا على الإحصاء بغية معرفة تواتر الأحاديث والآيات والأشعار في الرحلة.

وقد جاءت الدراسة في مدخل وثلاثة فصول:

ففي التمهيد ، تناولنا أدب الرحلة وإشكالية التّجنيس وحاولنا أن نعرض بعض الآراء التي تؤكد على استقلالية أدب الرحلة عن غيرها من الأجناس الأدبية .

أمّا الفصل الأول فقد عرضنا فيه لنشأة أدب الرحلة ومفهومه عند العرب كما تحدّثنا عن أدب الرحلة في الجزائر وإسهامات الجزائريين فيه .

واختّص الفصل الثاني بالحديث عن رحلة ابن حمادوش الجزائري من حيث بنائها الفني وموضوعاتها وقد قدّمنا فيه قراءة لعتبة الرحلة وركّزنا على اللّغة والأسلوب والمنهج كما تحدّثنا عن موضوعات الرحلة.

واهتّم الفصل الثالث بإبراز صورة المغرب والجزائر من خلال هذه الرحلة حيث عرضنا فيه لمختلف الجوانب الحياتية التي ركّز عليها ابن حمادوش في رحلته.

وتضمّنت الخاتمة ملّخصا لأهم النتائج المتوصل إليها من خلال هذه الدراسة.

ولا نزعم في بحثنا هذا مجال السبق بل إنّ هناك عددا من الدراسات والرسائل الجامعية التي تعتبر رائدة في هذا المجال أي في أدب الرحلة على وجه العموم كتلك الدراسة التّي تقدّم بها الباحث عمر بن قينة في أطروحته التي تحدّثنا عنها سابقا وفي كتبه المتعددة والباحثة سميرة أنساعد في بحثيها الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري دراسة في النشأة والتطور والبنية وأدب الرحلات الحجازية النثرية في الجزائر" إذ نجد في بحثها الأخير حديثا مقتضبا عن رحلة ابن حمادوش.

أمّا الباحثة مقدّم فاطمة فقد ركّزت اهتمامها على الخصائص السردية في رحلة ابن حمادوش دون أن تتعداها، هذا فضلا عن بعض الآراء المبثوثة في الكتب كتلك الدراسة التّي تقدّم بها الأستاذ أبو القاسم سعد الله في عدد من مؤلفاته كـأبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، تاريخ الجزائر الثقافي، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري.

وتجدر الإشارة إلى أهم الصعوبات التي واجهتنا أثناء إنجاز هذا العمل والتي تتمثّل في ندرة المصادر والمراجع التي تتناول بالنقد والتحليل رحلة عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري خاصة في مكتبتنا الأمر الذي دفعني إلى التنقيب عنها في مكتبات بجامعات أخرى كجامعة

الجزائر، وهران، سيدي بلعباس وبعض المراكز ودور الثقافة، وقد تمكّنت بعون الله وبفضل توجيهات أستاذي المشرف قادة محمد من تخطّي هذه العوائق .

وفي نهاية رحلتي هذه ، فإنّ كلّ ما توصّل إليه البحث ، لا أدّعي بلوغه درجة الكمال وخلوه من العلل، بل هو عمل قابل للزيادة والنقص في ضوء ما يستجّد من أفكار وآراء، شأنه في ذلك شأن أي بحث آخر ، كما أتمنى أن يكون نقطة انطلاق لبحوث ودراسات أخرى إن شاء الله، فإن كنت قد أصبت القصد من هذه الدراسة فبفضل الله أوّلا وبفضل أستاذي المشرف ثانيا الذي بذل لي من وقته وجهده وإن زلت قدمي فعذري أنّني مازلت طالبة علم.

ولا يفوتني في الأخير أن أتقدّم بالشكر الجزيل للسادة أعضاء لجنة المناقشة على حرصهم على تقييم هذا العمل والله من وراء القصد ، إيّاه أسأل الهدى والتوفيق إن شاء الله.

المدخـــــل

إنّ البحث في أدب الرحلة باعتباره جنسا أدبيا مستقّلا مسألة اختلف حولها النق اد والباحثون العرب، ذلك أنّ سؤال التّجنيس عندهم لم يُثِر من الاهتمام إلاّ القليل، إذ المعروف أنّ الشعر قد غلب على الأدب العربي ولم يُلْتَفَتْ إلى النّثر إلاّ في زمن متأخّرٍ، فقد كان يُعَدُّ من الكلام الذي لا يستحّق التّدوين أوّل الأمر، ونتج عن هذه النّظرة أن اعترف النقاد ببعض الأجناس النثرية الكتابية صراحة كما اعترفوا بالبعض الآخر إشارة أو تلميحا أمّا الأجناس الشّفهية والسّردية فلم تنل حظّها من اهتمام النقاد ويعتبر أدب الرحلة من بين هذه الأنواع .

وقد أشار (**محمد فتوح أحمد**) إلى هذا الحيف الذي لقي بالأجناس النثرية في الأدب العربي القديم بقوله:" وينبغي أن نعترف بأنّ الأجناس النثرية في الأدب العربي مغبونة إلى حدّ ما فهي لم تطرح على بساط البحث بذلك النزوع إلى التعميق والتحليل اللذا ن استأثرت بهما دراسات الشعر العربي"[1] .

وتجدر الإشارة إلى أنّ ما ورد من تصنيفات للنثر اقتصر على أربعة أنواع وهي الخطابة والتّرسل والاحتجاج والحديث ولم يتناولوا في تحديدهم للأنواع التي تندرج تحت ما يسمى (جنس النثر) نوعا يقال له الرحلة أو أدب الرحلة حتّى أنّ البعض منهم دعا إلى نبذ فكرة التّجنيس كليّة وتحرير الأدب من كلّ قانون، بما في ذلك قانون التّجنيس مؤكّدين في ذلك بأنّ الأدب يكمن جوهره في تجنّبه لكلّ تحديد جوهري.

ويبدو أنّ كلّ هذه الآراء كان لها أثرا مباشرا على أدب الرحلة الذي ما تزال إشكالية تجنيسه

[1] محمد فتوح(أحمد): النثر الفني في العصر الأموي، مكتبة الشباب ، القاهرة، 1984، ص05.

عصيّة فهو يفلت من كلّ تحديد وتأطير الأمر الذي يجعلنا نقف حائرين أمام هذا النص الإشكالي الذي يرفض كلّ القيود والتّحديدات فما موقعه يا ترى من مسألة الأجناس وهل هو جنس أم نوع أم نمط؟ وما مدى تفاعله مع الأجناس الأخرى؟

وعلى هذا الأساس أصبح من الضروري إعادة طرح الأسئلة المتعلّقة بالأجناس الأدبية، في سياق مفاهيم جديدة مثل مفهوم **التّهجين*** ومفهوم العَبْرِيَة، فضلا عن **التّناص**** وحوار الثقافات والأنساق ....إلخ.

إنّ أهمية هذه الأسئلة تعود إلى "طبيعة المتن الرحلي ذاته ذلك أنّ الرحلة نص أو مصدر لكل النصوص وملتقى لكلّ الخطابات يتداخل فيها الأدب الجغرافي بالتجربة الذاتية للمسافر، معاجم البلدان بالمسالك والممالك والخطط، الرّوبورطاج وبالاستطلاع وعلم الأطوال والعروض، والتقارير بتعليقات المساحين أو الطّبوغرافيين والمؤقتين والمؤرخين والرواة بالشفاهة والكتابة لأحداث مُتخيَّلة أو حقيقية ... هذا التعدّد أو التنوّع للمرسل والرسالة والمتلقي، هو تعدّد أو تنوّع يخضع في المتن الرحلي لهيمنة بنية السفر. وهذه الأخيرة تصبح فارقا نوعيًّا بين الرحلة وغيرها من الأجناس الأدبية أو غير الأدبية كما أنّها تصبح فارقا نوعيا بين الرحلة وغيرها من الأجناس الأدبية أو غير الأدبية كما أنّها تصبح دالة على

---

* يقصد بالنص المهجّن كلّ نص تداخلت فيه خصائص نصوص أخرى وتزاوجت فيما بينها واختلطت لتنتج نصا جديدا ومركبا .

** التناص مصطلح نقدي أطلق حديثا وأريد به " تعالق النصوص وتقاطعها، وإقامة الحوار فيما بينها". ينظر مباركي (جمال): التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، إصدارات رابطة الإبداع الثقافية، دار هومة، الجزائر، 2003،ص 37.

طبيعة الفارق النّوعي من حيث كونه معيارا نقديا يتيح للمتلقي التّمييز بين المتن الرّحلي وغيره من النصوص والأجناس، وإلاّ إذا ألغينا هذا المقياس أصبحت كلّ النصوص والأجناس رحلات مادامت هذه النصوص تضمّ بطريقة أو بأخرى رحلة مادية أو مجازية، رحلة في المكان أو الزمان، في الماضي أو الحاضر، في الواقعي أو المتخيّل في الشفهي أو المكتوب...إلخ"[1].

إنّ هذه الأسئلة تمكّننا من اكتشاف الغنى الأجناسي للرحلة الذي يتجاوز التعامل مع الاسم الصريح لها(رحلة، جولة، تذكرة، وصف، يوميات، مشاهدة، دليل....) أو قد يدفعنا إلى النظر من مواقع مختلفة لنصوص قد لا تحمل هذه الهُويّة الأجناسية أو من ناحية أخرى قد تحمل أسماءها الضمنية النّابعة من عنونة تستحّق أكثر من وقفة.

والحقّ أنّ الباحث **(مؤدن عبد الرحيم)** في كتابه الرحلة في الأدب المغربي يبدو مُصِّراً على اعتبار الرحلة جنسا أدبيا حيث يقول:" والرّحلة جنس أدبي يقوم على محكيّ السّفر كما أنّ أنماطه وأنواعه توظّف هذا المحكي بصيغ مختلفة وأساليب متنوّعة " [2] ونلمس في هذا التحديد أنّ الرحلة أصل وما تفرّع منها كالرحلة الزّيارية والحجّية والاستطلاعية نوع، وما تفرّع من هذه الأنواع فهو نمط، وهو يرى أنّ البنية الخطابية للمتن الرحلي من أهمّ مميّزاته الأجناسية الخاصّة بحكم امتلاكه لسرده المميّز النّابع من حكي السّفر.

---

[1] ينظر مؤدن(عبد الرحيم): الرحلة في الأدب المغربي، النص والنوع والسياق، أفريقيا الشرق، المغرب، 2006، ص162،161 .

[2] مؤدن(عبد الرحيم) : الرحلة في الأدب المغربي، ص 05.

ويواصل هذا الكاتب تأكيده لفكرة انتساب الرحلة إلى جنس أدبي في كتاب آخر بعنوان الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر حيث يقول:" ليست كلّ كتابة عن رحلة ما تعد نصا من نصوص السفر وليس كلّ وصف للأمكنة المرتحل إليها يخلق نصا منتسبا إلى هذا الجنس الأدبي، بل إنّ ذلك لا يتأتّى للرّحالة إلاّ إذا مزج بين التسجيل وبين الشعور الخاص تجاه المسجل، وإلاّ تحول الوصف إلى دليل مفرغ من كلّ إحساس مميّز" [1] ومعنى هذا أنّ توّفر تيمة السفر في بعض النصوص لا يعني بالضرورة أنّها تنتمي إلى جنس الرحلة على اعتبار أنّ هذه الخاصية قد تتوفر في أغلب النصوص إلاّ أنّ السفر هو العنصر المهيمن في الرحلات .

أمّا الباحث **(شعيب حليفي)** فيشير إلى أنّ "الباحثين قد اختلفوا في تحديد خانة انتساب هذا النص فنعتوه مرة بـ "أدب الرحلة" وهو قصد واضح بانتسابها إلى حقل السرد باعتبارها كتابة أدبية تتوافر على مكونات سردية وآليات كتابية تسمح للتصنيف أن يأخذ مشروعيته في خانة الأدبي فيما هناك نعت آخر يكتفي بالحديث عن هذا الشكل باسم "الرحلة" فقط، بهدف فتح نافذة إضافية على التاريخ والجغرفيا وعلم الاجتماع" [2] ممّا يتيح للرحلة الانفتاح على

---

[1] مؤدن(عبد الرحيم): الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر–مستويات السرد–، دار السويدي، أبو ظبي،ط1، 2006، ص28.

[2] ينظر حليفي(شعيب): الرحلة في الأدب العربي، التجنّس، آليات الكتابة، خطاب المتخيّل، رؤية للنشر والتوزيع،القاهرة،ط1، 2006، ص41.

مختلف الأشكال والأجناس ويجعلها كقطعة الفسيفساء تجمع بين خصائص الأجناس والأنماط كلّها بشكل يجعلها نصا جامعا يُفِيدُ من كل النصوص ويتجاوزها.

ومن هذا المنطلق يمكن اعتبار الرحلة من حيث هي نوع أدبي تتخطى الحدود المرسومة لها لتتجاوزها إلى أنواع أدبية أخرى كالسّيرة والمذكّرات والتاريخ وما إلى ذلك ممّا يجعل مهمة تسييجها في خانة محدّدة أمرا مستحيلا.

ولهذا فإنّنا نُرَجِّحُ نسبة هذا النص إلى النصوص التي وصفها جنيت بـ"النص الجامع" لأنّ فيها شيء من الرواية وشيء من القصة وشيء غير قليل من الشعر وشيء من السيرة وشيء من الرسائل هذا فضلا عن المقامة وهذا ما يسوّغ الزّعم بأنّ هذا النص نصّ استثنائيّ يتخطّى قواعد التّصنيف ويجلّ عن التّجنيس.

ولاشكّ أنّ عدم القدرة على تدقيق مجال انتساب الرحلة وبالتالي عدم الوصول إلى إجابة شافية عن الأسئلة المتعلقة بها يفرش أرضية ويفتح مجالا لمزيد من البحث فأدب الرحلة أدب فائق ولهذا فهو يتأبّى عن التّجنيس على حدّ تعبير الباحث (إبراهيم خليل) الذي يقول:" إنّ الأثر الأدبي الفائق هو الذي يتأبّى بطبيعته عن التّجنيس"[1].

[1] إبراهيم(خليل): في نظرية الأدب وعلم النص، بحوث وقراءات، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1،2010، ص 23.

وبهذا يمكن أن نصف نص الرحلة بالهجانة والمرونة حيث يُخيَّل للمتلقي أنّه أمام مجموعة من الأنواع الأدبية، لا أمام نوع واحد إذ تمتزج فيها وتتماهى مختلف خصائص الفنون الأخرى بشكل يجعلها قابلة للتعدّد والانفتاح، ويبدو أنّ قابلية الرحلة للتعدّد والانفتاح مردّها إلى ما يعرف بتداخل الأنواع وهي خاصية لصيقة بالنصوص السردية .

إنّ اتّسام الرحلة بمثل هذه الخصائص وقف عائقا أمام تحديد حقل انتسابها، فذهب كلّ باحث إلى تأطيرها من زاوية حقل اشتغاله، بل إنّنا نجد الباحث الواحد يلتبس عليه أمر تسييجها فيصفها مرة بأنّها جنس ومرة بأنّها نمط ومرة يكتفي بالقول بأنّها نوع أدبي ينتمي لحقل السرد، ويكفي هاهنا أن نتأمّل الكلام الذي قاله الباحث **(حسين نصار)** والذي نصّ فيه على مايلي:"لا نستطيع أن نعدّ أدب الرحلة من النمط الروائي ولا القصصي، فلهذين الجنسين الأدبيين قوانينهما من عقدة وحبكة وأشخاص متطورين ...إلخ ولا تَأْبَهُ الرّحلة الواقعية للكثير من هذه القواعد، إلاّ إذا كانت خيالية محضة، وأراد بها صاحبها أن تكون رواية، وعلى أيّة حال فإنّ الرحلة الأدبية إن لم تكن قصة ولا رواية بالمعنى الدقيق فهي أخت شقيقة لهما" [1].

ونلمس من هذا الكلام أنّ الرحلة جنس أدبي وإن لم يعترف بها صاحب الكلام صراحة وإنّما ورد ضمنا، وما يلاحظ أيضا في هذا النص الالتباس الذي وقع فيه قائله فهو في بداية كلامه يصف أدب الرحلة والرواية والقصة بأنّها أنماط ثمّ يصفها في مرحلة أخرى بأنّها

[1] نصار(حسين): أدب الرحلة، دار نوبار للطباعة، القاهرة،ط1، 1991، ص 132.

أجناس ولا شكّ أنّ هذا التغيير ينّم عن خلط ولبس وصعوبة التفريق بين كلّ من الجنس والنمط والنوع .

ويبدو أنّ هذا اللُّبس في التحديد مرده إلى ثراء أدب الرحلة من حيث المضمون والشكل ممّا فرض على كلّ من تعرضوا لهذا النوع بالدراسة أن يُنَبِّهُوا على ذلك وعلى أنّ محاولاتهم ما هي إلاّ اجتهادات وكان هذا السلوك إدراكا حقيقيا منهم لطبيعة هذا النوع وهو الأمر الذي أشار إليه الباحث (**ناصر عبد الرزاق الموافي)** في قوله:" لقد دُوِّنَتْ الرحلات بأساليب مختلفة مما أوضح أنّه ليس هناك دليل على سهولة التناول" [1] ويقول في موضع آخر:" إنّ هذا النوع من الأدب صعب التناول رغم أنّه شائق لدى القارئ وهو ليس سهلا ولا هيّنا ولكنّه فنّ صعب للغاية " [2] .ويبدو أنّ صعوبة دراسة هذا الجنس مردها إلى انفتاحه أولا وعدم الاتّفاق على خانة انتسابه ومرونته ثانيا ، كما أن طبيعة الرحلة المتحررة ومضامينها المتجددة دَومًا، أثَّرَتْ بالسَّلبِ على شكلها فلم يتفّق الرّحالون أو النقاد بصفة عامة على شكل معيّن فضلا عن مضمون معيّن يمكن احتذاؤه .

ومن هنا فإنّ كلّ محاولة لدراسة هذا النوع الأدبي لابد أن تصطدم بعقبة عدم الانضباط المنهجي ولابد أن نعترف بها لأن الزّعم بغير ذلك ينطوي على عدم فهم حقيقي لهذا النوع.

---

[1] الموافي (ناصر عبد الرزاق): الرحلة في الأدب العربي حتّى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات، مصر ،ط2،1999، ص 47.

[2] المرجع نفسه، ص47.

وتجدر الإشارة إلى أنّنا وجدنا أنفسنا نقف أمام طرفين نقيضين، واحد يقول باستقلالية الرحلة عن بقية الفنون والأنواع وآخر يقول بعدم ذلك .

أمّا أصحاب الرأي الأوّل فنذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر **عبد الرحيم مؤدن، شعيب حليفي، سكران عبد القادر، عبد النبي ذاكر، شوقي ضيف، كمال بولعسل، حطاب طانيا** وغيرهم كثير. وسنحاول في هذا المضمار أن نستشهد بأقوال هؤلاء حتّى نوضح للقارئ بعضا من هذه الآراء ويكفي هاهنا أن نشير إلى رأي الباحث (**شعيب حليفي**) الذي يقول بعد دراسة مستفيضة له :"لقد صارت الرحلة نصا مستقلا في شكله، له مرجعيتان تحكمان بناءه: المرجعية التيماتية المرتبطة بتجربة واقعية أو ذهنية متحولة من تَذَكُرَاتٍ إلى موضوع للرحلة. والمرجعية النصية المتصلة بالسرد الأدبي القريب من نفس الحكاية الشعبية، والصياغات التاريخية والتوصيفات الجغرافية"[1].

ويصرّح الباحث (**سكران عبد القادر**) منذ الصفحة الأولى من مقدمة بحثه على كون أدب الرحلة جنسا أدبيا حيث يقول:"لا يعدّ أدب الرحلة مجرّد وثيقة تاريخية وجغرافية وأنتروبولوجية فحسب وإنما هو بالإضافة إلى ذلك جنس أدبي له خصوصية في الشكل والمضمون معا تتحدّد من خلال خصوصية كتابته القائمة على الحدث الحقيقي والقول الحقيقي المؤسسين للمحكي الرحلي الموجه إلى المتلّقي لأجل استدراجه لمشاركة المؤلف في هذه التجربة بكلّ ملابساتها وتلويناتها... والرحلة جنس أدبي يخرج من دائرة الوثيقة

[1] حليفي (شعيب): الرحلة في الأدب العربي، ص123.

الوضعية، ويدرس في إطار الكتابة بكلّ أبعادها الجمالية، وذلك للوقوف على الخصوصيات المميّزة لهذا النوع من الخطاب وما يحتويه بين طياته من أساليب وتعابير تستشّف من النصوص المؤسسة لهذا الجنس الأدبي" [1] . وهو بهذا الاعتبار يقرّ بل ويؤكدّ على كون أدب الرحلة جنسا أدبيا مستقّلا له خصائصه ومعاييره التي يتفرّد بها دون غيره من الأجناس.

ويتفّق مع هذا الرأي ما جاء به الباحث (**عبد النبي ذاكر**) في وصفه للرحلة بأنّها:"شكل أدبي هجين ينماز بتعدد أوجهه وتمظهراته إلى حدّ أنّه يمكن القول إنّه جنس متكامل يحطم قانون صفاء النوع، وذلك بإدماجه أنماطا خطابية متنوّعة من حيث الأشكال والمحتويات الشيء الذي يعطي الانطباع بأنّه شكل مائع ومرن إلى حدّ كبير، إضافة إلى شدّة تعقدّه واحتماله لأنماط وأساليب ومضامين كتابية تبعده عن البساطة الظاهرة، لتجعل منه جنسا مركّبا وكليّا وشموليّا وعاما وجنس الأجناس، بل يمكن أن نذهب أبعد من ذلك ونقول :إنّه أدب بلا حدود وهنا يكمن أحد الأسباب التي جعلت البعض يقصي هذا الجنس من دائرة الأدب والفن"[2].

---

[1] سكران (عبد القادر): الرحلة الحبيبة الوهرانية الجامعة للطائف العرفانية لخديم الحضرة التيجانية ذات المواهب الربانية لأحمد بن الحاج العياشي سكيرج – تحقيق ودراسة– ، رسالة دكتوراه، جامعة وهران، 2007– 2008، ص أ.

[2] ذاكر(عبد النبي) : الرحلة العربية إلى أوروبا وأمريكا والبلاد الروسية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي،ط1، 2005، ص94.

ويتضّح من خلال هذا الكلام أنّ اتّسام أدب الرحلات بالمرونة والانفتاح وقدرته على استيعاب خصائص الكثير من الفنون الأدبية أهّلته لكي يتبوّأ مكانته ضمن الأجناس الأدبية بل وجعلته يحتويها ويخترقها متجاوزا بذلك إطار الجنس المحدّد إلى ما يعرف بنقاء النوع. وانطلاقا من هذا الاعتبار يمكن لنا أن نزيل كلّ الفواصل بين الأجناس والأنواع لتصبح كلّها متجاورة وقابلة لأن تمتح وتستفيد من بعضها البعض دون النظر إليها وكأنّها قارات منفصلة وأجناس متباينة.

ويرى الباحث (**شوقي ضيف**) أنّ أدب الرحلات:" هو ذلك النثر الأدبي الذي يتّخذ من الرحلة موضوعا، أو بمعنى آخر الرحلة عندما تكتب في شكل أدبي نثري متميّز، وفي لغة خاصة، ومن خلال تصوّر بناء فني له ملامحه وسماته المستقلة" [1] ونلمس في هذا التحديد أنّ صاحبه قد أغفل حقيقة هامة وهي أنّ هناك من الرحلات ما كتب شعرا كما أننا نستشف من خلال كلامه أيضا أنّه يعتبر أدب الرحلات جنسا أدبيا متميّزا له لغته وبناؤه الخاص.

ويعتبر الباحث (**كمال بولعسل**) من بين الباحثين الذين أكّدوا على كون الرحلة جنسا أدبيا وفي هذا يقول:" وإنّ هذه النصوص– ويقصد النصوص التاريخية والدينية والجغرافية– تعدّ هجينة في هذا الجنس الأدبي حيث تخترقه عدّة تخصصات وممارسات فكرية ..."[2] أمّا الباحثة (**حطاب طانيا**) فتقول في معرض حديثها عن إشكالية الأجناس :" ولمّا كانت

---

[1] ضيف (شوقي): الرحلات، دار المعارف ، مصر، د ط ، 1991، ص06.

[2] بولعسل (كمال): رحلة أبو حامد الغرناطي دراسة في فضاء الرحلة، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، دت، ص 48.

الأجناس الأدبية التي تأخذ منها الرواية وتتعالق معها كثيرة ومتشعّبة فقد وقع اختياري على ثلاثة أجناس وهي السيرة الذاتية، أدب الرحلات والأسطورة" [1] ويبدو أنّ إدراج الباحثة لأدب الرحلات ضمن الأجناس التي ذكرتها كان عن وعي وإدراك منها لطبيعة هذا الجنس الأدبي. وينضاف إلى قائمة الكتاب الذين أقروا بالطابع الأجناسي للرحلة ما جاء به الباحثان (**سعيد بن سعيد العلوي) و(فؤاد قنديل)** ، أمّا الأوّل فقد حدّد بثقة ووضوح مجال انتساب الرحلة في قوله:" تشكّل الرحلة جنسا أدبيا يتسّم بالطرافة متى قورن بالأجناس الأدبية الأخرى، ويمتاز بجمعه بين الإفادة والإمتاع، فقارئ الرحلة لا يطلع على العالم الذي ينقله إليه المسافر صاحب الرحلة فحسب، بل يتعرّف على أفكار وتصورات ورؤى ذلك الذي يحدّثه عن موضوع رحلته وينقل إليه مشاهدات من البلد التي ينتقل إليها"[2] .

أمّا الثاني فقد ورد في معرض حديثه عن التطور الذي بلغه أدب الرحلات قولا مفاده أنّ "أدب الرحلات قد بلغ أوّجه لدى المتأخرين في المرحلة المنحصرة بين القرن الثالث الهجري والثامن ميلادي والتي تعتبر أعظم مرحلة في مسار هذا الجنس الأدبي"[3] .

---

[1] حطاب (طانيا): إشكالية التّجنيس في الرواية العربية المعاصرة، دراسة في نماذج عربية، أطروحة دكتوراه، جامعة مستغانم، 2010– 2011، ص "ب".

[2] العلوي (بنسعيد): أوربا في مرآة المرحلة – صورة الآخر في الرحلة المغربية المعاصرة– ، دار السويدي، أبو ظبي،ط1،2006،ص11.

[3] قنديل (فؤاد): أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة،ط 2،2002، ص07.

وبعد فهذه مجموعة من الآراء التي ارتأينا أن نستأنس بها لكي نثبت للقارئ موقع الرحلة ضمن الخريطة الأجناسية وهي آراء متباينة لباحثين من أقطار مختلفة إلاّ أنّ الشيء المشترك بينها هو ذلك الاتفاق والإلحاح على كون الرحلة جنسا أدبيا مستقلا.

وإن كنّا قد فصلنا الحديث عن أصحاب الرأي الأول فإنّه لمن الجور أن لا نعرض أمثلة عن أصحاب الرأي الثاني أي الذين يرفضون اعتبار الرحلة جنسا أدبيا ومنهم الباحث **(ناصر عبد الرزاق الموافي)** الذي يقول:" رغم الاهتمام بالرحلة باعتبارها مصادر حضارية، فإنّها غير معتبرة كفنّ أدبي مستقلّ، ولعلّ ذلك يعود إلى موقف الرحالة أنفسهم وحرصهم على تأكيد المضامين الفنّية للرحلة"[1] .

وتجدر الإشارة هاهنا إلى أنّنا عثرنا على صنف آخر من الباحثين تحدّثوا عن الرحلات دون أن يبرزوا خانة انتسابها ولا أن يمعنوا في كونها جنسا أو غير ذلك وإنّما كان همّهم الأكبر دراسة المتن الرحلي من حيث بنائه الفني وخصائصه وكذا مكوناته السردية ومن هؤلاء حسني محمود حسين، محمد مسعود جبران، اعميراني حميدة... وغيرهم كثير.

وأمام هذا التضارب في الآراء فإنّنا نعترف بكون أدب الرحلة جنسا أدبيا ولكن هذا لا يعني في الوقت نفسه أنّنا نفنّد الآراء التي تقول عكس ذلك بل إنّنا نحترمها ونتقبّلها.

ونحن بدراستنا لإشكالية التّجنيس في أدب الرحلات قد وصلنا إلى نتيجة مفادها أنّ أدب الرحلات هو أدب غير محدود وبالتالي غير واضح المعالم وهو الأمر الذي صعّب على

---

[1] الموافي (ناصر عبد الرزاق) : الرحلة في الأدب العربي ، ص 12.

الباحثين مهمّة تحديد إطاره ورسم خريطة أجناسية له.وإن كنّا قد استخلصنا بأنّ أدب الرحلات جنس أدبي فلا يعني ذلك بأنّنا قد فصلنا في الإشكالية التي طرحت أوّل الأمر بل إنّنا لم نصل إلى إجابات شافية بقدر ما وجدنا أنفسنا محاطين بتساؤلات معقدّة ومقلقة في آن واحد يقول الباحث شعيب حليفي:" والرّحلة نص مفتوح لا يمكن أن يتسيّج في خانة محدّدة تجنّسه بصفة معيّنة تضيّق من تحرره واتّساعه وانتشاره وهجومه الضروري على حقول أخرى، لهذا فإنّ القول بنصيتها، هو انفتاح على دينامية الرحلة، وعلى خطاباتها المستندة على طرفي الذات والآخر، وجسور التعبيرات المختلفة عنهما وحولهما"[1].

[1] حليفي (شعيب) : الرحلة في الأدب العربي، ص 44.

الفصل الأول:

أدب الرحلة مفهومه ونشأته:

1- مفهوم أدب الرحلة لغة.

2- اصطلاحا.

3- نشأة أدب الرحلة عند العرب.

4- طبيعة الرحلة في الجزائر.

1- مفهوم أدب الرحلة لغة:

لقد عمدنا إلى البحث عن دلالة كلمة (رحل) في بعض المعاجم العربية، واللّافت للنظر أنّ دلالة هذه الكلمة تكاد تكون متشابهة عند المعجميين العرب، وهذا ما سنحاول توضيحه .

يذكر **(ابن منظور)** أنّ :"الرَّحْلَ مَركبُ للبعير والنّاقة، وجمعه أَرْحُلٌ ورِحَالٌ والرَّحْلُ في غير هذا منزل الرجل ومسكنه وبيته وانتهينا إلى رِحَالِنَا أي منازلنا، ورَحَلَ البَعِيَر يرحَلُهُ، رَحْلاً فهو مَرْحُولٌ ورَحِيلٌ ، وارْتَحلَهُ جعل عليه الرَّحْلَ ، ويقال رَحَلْتُ البعير أُرْحِلهُ رَحْلاً، إذا عَلَوْتهُ وأَرْحَلَ الرجل البعير إذا أخذ بعيرا صعبا فجعله رَاحِلَةً والرَّاحِلَةُ من الإبلِ ، البعيرُ القَويُّ على الأَسفارِ والأَحمالِ ، وهي التي يختارها الرجل لمركبه ورَحِيلِهِ...ويقال رَحَلَ الرَجل إذا سار ورجل رَحُولٌ وقوم رُحَّلٌ أي يَرْتَحِلُونَ كثيرا والارْتِحَالُ الانتقال والرِّحْلَةُ اسم لِلارْتِحَالْ والمسير والرُّحْلَةُ بالضَّم ، الوجه الذي تأخذ فيه و وتريده ، والرِّحْلَةُ السّفرة الواحدة والرَّحِيلُ اسم اِرْتِحَالِ القوم للمسير وقد يكون المُرْتَحَلُ اسم الموضع الذي يُحَّلُ فيه والرِّحْلَةُ في اللّغة التَّرْحِيلُ والارْتِحَال بمعنى الإشْخَاصُ والإزْعَاج."[1]

إنّ المتأمل في كلام **(ابن منظور)** يلفي أنّ كلمة رحلة تدّل على السير والضرب في الأرض والانتقال والوجهة أو المقصد الذي يراد السفر إليه أو دنو المكان المراد الوصول إليه أو اقتراب وقت الرّحيل، ولهذه المعاني كلّها كان لفظ رحلة يطلق على من انتقل من مكان لآخر ومنه أخذ لفظ رحّال وهو الشّخص المتنقّل من مكان لآخر، ولهذا فالشّخص الذي قام بالرحلة ، قد ترك موطنه وانتقل إلى مكان آخر، وسافر من موطنه وقصد جهة أخرى غير موطنه وسار إليها، لذا كان لفظ رحلة أعم وأشمل ما يطلق على المسافر من مكان لآخر، والرحال صفة مشتّقة من الفعل الذي قام به وهو الرّحلة .

والملاحظ أنّ دلالة لفظة (رحل) تطوّرت إذ ارتبطت في البداية بالإبل التي سميت رَوَاحِلاً ثمّ اقترنت بالإنسان المستخدم لها، ومهما تعددت اشتقاقات الكلمة ودلالاتها

---

[1] ابن منظور(محمد بن مكرم):لسان العرب،ج11، دار صادر،بيروت،ط3،1994، ص276.

إلاّ أنّ معانيها مشتركة تصبّ في معنى واحد وهو الحركة والتنقل من مكان إلى آخر ولعل هذا ما حدا بالباحثة (**سميرة أنساعد**) إلى اعتبار أنّ "الرحلة مرتبطة بالإنسان منذ وجوده، إذ تدّل الحركة على حياته مثلما يدل السّكون على موته"[1].

ويذهب (**ابن فارس**) في معجمه **مقاييس اللّغة** إلى أنّ : "الرَّاءُ والحَاءُ واللاَّمُ أصل واحد يدّل على مضي في سفر يقال رَحَلَ يَرْحَلُ وجمل رَحِيلٌ ذو رحلة إذا كان قويّ على الرحلة "[2]. ومعنى هذا أنّ كل كلمة اجتمعت فيها هذه الحروف لم يخرج معناها عن الحركة والسير والانتقال، ونجد في كلامه هذا اتّفاقا مع ما قاله ابن منظور بل هو تكرار له .

ويشير (**الفيروز أبادي**) في **القاموس المحيط** إلى دلالة الرحلة بقوله: "ارتحل البعير سار ومضى والقوم عن المكان انتقلوا " [3] . ومن هاهنا نستشّف أنّ دلالة كلمة رحل في لغة العرب تلّخصت في السّير والانتقال والحركة وتجدر الإشارة إلى أنّ القرآن الكريم حفل بالعديد من الأمثلة التي تشير إلى هذه المعاني على الرّغم من عدم ورود لفظة رحلة فيه إلاّ في قوله جلّ وعلا:﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ إِۦلَٰفِهِمْ **رِحْلَةَ** ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴾[4]وفي سورة يوسف على ثلاثة صيغ منها قوله عزّ وجلّ: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي **رَحْلِ** أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾[5].

2- اصطلاحاً:

حينما نحاول أن ندقّق في تحديدنا لمصطلح الرحلة أو أدب الرحلة نصطدم بصعوبات كبيرة إذ تظهر لنا متناقضات شتّى، ولعلّ مرّد ذلك راجع إلى اختلاف الباحثين في تحديده وتباين آرائهم في ذلك، حتّى أنّه يتعذّر على الواحد منهم التفريق

---

[1] أنساعد(سميرة): الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص15.

[2] ابن فارس(أحمد): مقاييس اللّغة، المجلّد الثاني، دار الجيل، بيروت، دت، ص446.

[3] الفيروز(أبادي):القاموس المحيط،ج3، دار الإحياء للكتب العربية،بيروت، 1985، ص394.

[4] سورة قريش: الآية 01.

[5] سورة يوسف: الآية 70.

بينه وبين ضروب الفن الأخرى كالقصة والرواية والسيرة وغيرها، ذلك أنّ أدب الرحلة هو نص جامع لمجموعة من الاختصاصات.

ولعل هذا ما حدا بالباحث **(بولعسل كمال)** في دراسته الموسومة بـ:"رحلة أبي حامد الغرناطي دراسة في الفضاء " إلى القول:"إنّ الناقد المقتحم لهذا الفضاء المعرفي/الأدبي سوف يقف حائرا أمام هذا النص الإشكالي الذي يمتنع عن التصنيف والانكشاف النقدي، ولعلّ الحاصل إلى حد الآن هو أنّ أدب الرحلة كان محل نزاع بين عدد من الباحثين في اختصاصات مختلفة، يتضّمنها هذا الخلق الأدبي، كعلماء الجغرافيا والأنتروبولوجيا* والإثنوغرافيا** "[1] .

ومعنى هذا أنّ أدب الرحلة هو خطاب يتّسع لكثير من العلوم والقطاعات، الأمر الذي جعل الباحثين يحاولون تمزيق هذا النص قطعا لصالح مناهجهم واختصاصاتهم، محاولة منهم في فهم الشعوب والحضارات القديمة، واكتشاف أنماط

---

* الأنتروبولوجيا: مصطلح غربي ترجم إلى العربية تحت اسم علم الإنسان أو علم الإناسة وقد عرّفه الباحث شاكر سليم بقوله:" الأنتروبولوجيا هي علم دراسة الإنسان طبيعيا واجتماعيا وحضاريا" كما عرّفه الباحث حسين فهيم بقوله:" الأنتروبولوجيا منهج يسعى إلى تجميع المعرفة بالإنسان من كافة الجوانب وذلك بهدف تقديم فهم متكامل ومترابط عن الإنسان وحياته ونتاجه الحضاري في الماضي والحاضر". ينظر كتاب ريموند(ويليمز):الكلمات المفاتيح،ترجمة نعيمان عثمان، المركز الثقافي العربي، بيروت،ط 1،2007، ص47.وينظر أيضا شاكر(سليم): قاموس الأنتروبولوجيا(عربي/إنجليزي)، جامعة الكويت، 1981،ص56. وينظر كذلك فهيم(حسين): قصّة الأنتروبولوجيا، فصول في تاريخ علم الإنسان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1986، ص 15. وكذا موسوعة علم الإنسان المفاهيم والمصطلحات الأنتروبولوجية لشارلوت سيموز، ترجمة علياء شكري وآخرون، ص05.

** الإثنوغرافيا: هي كلمة معربة تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة العادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين خلال فترة زمنية معينة. ينظر فهيم(حسين): عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989، ص50.

[1] بولعسل (كمال): رحلة أبو حامد الغرناطي، دراسة في الفضاء، ص11.

العادات والتقاليد الاجتماعية والأساليب الثقافية والعقائدية في المجتمعات التي اخترقها الرحالة العرب المسلمون، مؤلفو هذه الرحلات .

ولهذا يذهب الباحث **(حسني محمود حسين)** إلى أنّ"نمط الرحلات يتعرض إلى جميع نواحي الحياة، إذ تتوّفر فيه فائدة وفيرة ممّا يهّم المؤرّخ والجغرافيا وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرّخي الآداب والأديان والأساطير، فالرّحلات منابع ثرّة لمختلف العلوم، وهي بمجموعها سجّل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أَهْلِهَا على مرّ العصور" [1] . إنّ أدنى تأمّل في هذا التعريف يجعلنا ندرك القيمة التي يحظى بها أدب الرحلات مقارنة بفنون الأدب الأخرى، وليس معنى ذلك أنّنا نَنْتَقِصُ من قيمة الفنون الأخرى ولكن قلّما نجد فنّا يحوي مثل هذا الكمّ من المعارف.

ويصف الباحث (**حليفي شعيب**) الرحلة بأنّها"إحدى الأشكال الكبرى الأم للأدب"[2] ونستشف من خلال هذا التحديد الذي جاء به أنّه يجعل من كل الأشكال الأدبية فروعا تنبثق من الرحلة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ أدب الرحلة عُرِفَ بعدّة نعوت **كالأدب الجغرافي** وهي التّسمية التي أطلقها الباحث الغربي **(كراتشكوفسكي*)** أمّا الباحث الجزائري **(مرتاض عبد الملك)** فيصنّف هذا الفن على أساس أنّه لون من **أدب المذكرات** [3] بينما يرى فيه الباحث **(شوقي ضيف)** لونا من ألوان القص[4].

ويذهب الباحث **(عمر بن قينة)** في تحديده لهذا الفن إلى أنّه ضرب من السيرة الذاتية يقول"فن الرّحلة لون أدبي،ذو طابع قصصي، فيه فائدة للمؤرّخ مثل الباحث

---

[1] حسني(محمود حسين): أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت،ط1983،2،ص06.

[2] حليفي(شعيب): الرحلة في الأدب العربي، ص81.

* أغناطيوس يوليانوفتش كراتشوفسكي(1883م/1951م): مستشرق روسي عمل نحو ثلاثين عاما على ترجمة القرآن إلى اللّغة الروسية، من مؤلفاته: حماسة البحتري وأوّل من اكتشفها في أوروبا، نظرة في وصف مخطوطات ابن طيفور والأوراق للصولي.

[3] ينظر مرتاض(عبد الملك): فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931- 1945، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص293.

[4] ينظر ضيف(شوقي): الرحلات، ص06.

في الأدب، والجغرافي وعالم الاجتماع وغيرهم، كما هو **ضرب من السيرة الذاتية** في مواجهة ظروف وأوضاع، وفي اكتشاف معالم وأقطار ووصفها ، والحكم عليها وعلى المجتمع فيها حكاما ومواطنين ، فهو وصف في النهاية لكل ما انطبع من ذلك وسواه في ذهن الرحالة عبر مسار رحلته."[1] ونلمس في هذا التعريف بعض السمات الجوهرية التي يتّسم بها هذا الفن وهي الدقة في الوصف ونقد الأوضاع وتصوير الحقائق كما هي لأنّ الأديب الرحالة يصف كلّ ما تلتقطه عدسته من مشاهد، وكل ما يسمعه أو يراه.

ولهذا يذكر الباحث **(سيد حامد النّساج)** :" أنّه ثمّة مثل إنجليزي ينصح المسافر بأن تكون له عينا صقر ليرى كلّ شيء وأذنا حمار ليسمع كل شيء، وفم خنزير ليأكل أيّ شيء، وظهر جمل ليتحمّل أيّ شيء، وساقا معزاة لا تتعبان من المشي، وأن يحمل معه حقيبتين مملوءتين بالمال والصبر" [2] هذه مجموعة من الصفات ينبغي على الرّحالة أن يمتلكها بالإضافة إلى صفات أخرى كسعة الثّقافة ، ودقّة الملاحظة، والتقاط الملامح المعبّرة .

وتقف الباحثة **(نوال عبد الرحمن الشوابكة)** موقفا مماثلا في تحديدها لهذا الفن بقولها :"أدب الرّحلات فنّ تغمره الحياة، يزخر بالتجارب الحيّة، والحركة والانتقال من مكان لآخر، وهو بهذا يلتقي بالسّيرة، ذلك أنّ كلمة سار تدّل على المسير والانتقال، وتومئ بطول الطريق، وقطع المسافات، وتعدّد المراحل، وهذا يتّفق مع الكتابات التي تؤرّخ لسيرة الإنسان منذ طفولته إلى شيخوخته " [3] ويبدو من خلال هذا التحديد أنّ الباحثة تحاول أن تبرز مواطن الائتلاف والتّشابه بين أدب الرحلات والسّيرة الذاتية

---

[1] بن قينة (عمر): في الأدب الجزائري الحديث تأريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1995،ص97.

[2] النّساج(سيد حامد): مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، دت، د ط، ص101.

[3] الشوابكة عبد الرحمن (نوال): الرحلات الأندلسية والمغربية، حتّى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المامون للنشر والتوزيع، عمان، ط2008،1، ص243.

على اعتبار أنّ الرّحلات تطلعنا على سير أصحابها وتكشف عن مواهبهم ودوافعهم للقيام بتلك الرّحلات.

ويشير الباحث **(ناصر عبد الرزاق الموافي)** إلى أنّ أدب الرحلات هو:"ذلك النثر الذي يصف رحلة أو رحلات واقعية، قام بها رحالة متميّز ،موازنا بين الذات والموضوع،من خلال مضمون وشكل مرنين، بهدف التواصل مع القارئ والتأثير فيه"[1]. ونستشف من خلال هذا التحديد بعض الشروط الأساسية التي يجب أن تتوفر في هذا الفن وهي تتلّخص أوّلا في الطابع النّثري لما له من ميزات تتيح للرحالة الحرية في وصف المشاهد ونقل الأحداث أمّا الشّرط الثاني فيتعلّق بالواقعية وهو أهّم شرط يميز أدب الرحلة عن غيره من الأنواع الأدبية ويضاف إلى هذه الشروط شرط آخر له علاقة بالرحالة وهو شرط التميّز، ورغم اشتمال هذا التعريف على هذه الخاصيات إلاّ أنّه يحصر أدب الرحلات في مجال النثر فقط ونحن نعلم أنّ هناك بعض الرحلات التي كتبت شعرا كما أنّ شرط الواقعية لا ينفي اعتماد بعض الرحلات على الخيال على اعتبار أنّ أدب الرحلة عمل فني يمتزج فيه الواقع بالخيال .

وتأكيدا على أهمية هذا الفن تعقد الباحثة (**نوال عبد الرحمن الشوابكة**) موازنة بين الرحلات والتاريخ، حيث تقول:"إنّ الرّحلات تكشف ما لا يكشفه التّاريخ، فالتّاريخ عام يشتمل على تصوير لحياة البلدان الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ونظم الحكم لشعب من الشعوب، وهذا ما حقّقته الرّحلات غير أنّها أعطت كلّ ذلك بعده المناسب، وتطرّقت إلى تحليل جوانب لم تتطرّق إلى تحليلها الوثائق التّاريخية، فقامت الرّحلات بوضع كلّ ذلك في دائرة الإشعاع التّي توّجه إليها لاستجلاء الواقع، وإخراج التّاريخ عن حدوده الضيقة" [2] ومعنى ذلك أنّ أدب الرحلات أوسع مجالا من التّاريخ ولعلّ هذا ما حدا بالباحث (**شعيب حليفي**) إلى وسم النص الرحلي بسمة النسب المنفتح، ذلك أنّه خطاب يسمح بتلاقح وتعالق وتحاور العديد من الأجناس التي

---

[1] الموافي(ناصر عبد الرزاق):الرحلة في الأدب العربي حتّى نهاية القرن الرابع الهجري،ص41.

[2] الشوابكة عبد الرحمن (نوال): أدب الرحلات المغربية والأندلسية، ص52.

تبحث عن حلّ للمشاكل التّي تطرحها نتاجات المؤرخين المتجددة، وهو يرى أنّ صعوبة تحديد وصياغة مفهوم للرّحلة مرده إلى عدّة اعتبارات أساسية منها:

- غياب تعاريف دقيقة وعدم الوعي بالرحلة الأمر الذي نتج عنه غياب تقعيد واضح للمفهوم، سواء عند الرحالة أو عند اللّغويين العرب.
- وجود نصوص رحلية كثيرة ثرية ومتنوّعة، الأمر الذي يصعب معه تحديد مفهوم جامع تلتقي حوله كلّ النصوص الرّحلية.
- **انفتاح** النص الرحلي على عناصر أخرى متحرّكة تحضر أو تختفي بدرجات متفاوتة بين النصوص. [1]

ويبدو أن سمة الانفتاح في نظرنا من أبرز السمات التي تصعب على الباحث الوصول إلى تعريف مستقّل لأدب الرحلات على اعتبار أنّه نسيج لوشائج متعالقة من الأشكال والأجناس، كما أنّ تعدّد الرؤى والتوجهات واختلاف زوايا النظر بين الباحثين من شأنه أن يقف حائلاً أمام تسييج هذا الحقل الموسوعي–إن صحّ التعبير– ووضع أطر له .

[1] ينظر حليفي(شعيب):الرحلة في الأدب العربي،التّجنس آليات الكتابة، خطاب المتخيّل، ص82.

3- نشأة أدب الرحلة عند العرب :

إنّ المتتبّع لمسار الرحلة في الأدب العربي يلفي أنّ جذور هذا الفن موغلة في القدم، ولا مشاحة في ذلك إذ تتفّق جلّ المصادر على أنّ العرب عرفوا الرحلة واشتهروا بها منذ عصور الجاهلية الأولى، وترجع الباحثة **(سميرة أنساعد)** ذلك إلى عدة أسباب منها:" طبيعة حياة العربي البدوية التي تعتمد على الرعي بحثا عن الكلأ والماء، التّباري بالشّعر، وكذا التجارة"[1] حيث كانت للعرب رحلات تجارية إلى بلاد العراق والشام واليمن وغيرها، ثمّ إنّ بعض الشّعراء كانت لهم رحلاتهم في داخل الجزيرة وإلى خارجها . إلاّ أنّ أخبار هذه الرحلات لم يدّون منها شيء أكثر ممّا ورد في مضامين الشّعر وكتب اللغة فيما بعد،ولعلّ أبرز مثال على ذلك ما ورد في قول النابغة الذبياني:

كَأَنّي شَدَدْتُ **الرَّحْلَ** يَوْمَ تَشَذَّرَتْ عَلَى قَـارِحٍ مِمَّـا تَضَمَّـنَ عَاقِـلُ[2]

وقول الأعشى:

كَأَنِّي وَ**رَحْلِي** والفِتَـــانَ ونُمـْرُقِي عَلَى ظَهْرِ طَاوٍ أَسْفَعَ الخَدِّ أَخْثَمَـا[3]

وتشير الباحثة (**نيقولا زيادة**) في بحثها الموسوم بـــ:"الجغرافيا والرحلات عند العرب " إلى أنّ رحلتي الشّتاء والصّيف إلى اليمن والشام اللّتين حفظهما القرآن الكريم في سورة قريش تبقيان أهم الرّحلات الجاهلية على الإطلاق[4] .

وممّا سبق يتضح أنّ الرّحلة قبل الإسلام كانت عموما لأغراض تجارية بحتة ومعنى ذلك أنّها كانت مجرد ممارسة أو فعل ولم ترتق إلى مستوى الفن القائم بذاته ولعلّ مرد ذلك سيادة الطابع الشفوي.

---

[1] ينظر أنساعد(سميرة):الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر، الوكالة الإفريقية للإنتاج السينمائي والثقافي، الجزائر، ط1، 2011، ص12.

[2] النابغة الذبياني(زياد بن معاوية): الديوان، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط 1، 1991، ص220.

[3] الأعشى: الديوان، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992، ص287.

[4] ينظر نقولا (زيادة): الجغرافيا والرحلات عند العرب، دار المعارف، تونس، 1994، ص137.

وبدخول الإسلام إلى شبه الجزيرة العربية بدأت تتغيّر الأهداف والدوافع ممّا أكسب الرحلة شكلا علميا ذا طابع فكري وأدبي وجعلها تنفتح على شتى العلوم التاريخية والجغرافية والاجتماعية ولعلّ هذا ما جعلها تكتسي طابع الموسوعية .

ومن هذا المنطلق ارتأى الباحث **(عمر بن قينة)** إلى أنّ "هذا الفن بدأ يأخذ مكانة معتبرة في الأدب العربي بل أنّه أصبح ينافس الفنون الأدبية الأخرى لطابعه الموسوعي واهتمـــامه بحياة النـــاس وعاداتهم وتقاليدهم ونظم الحكم وأساليب العيش، كما مضى يتطوّر ليكتسي أسلوبا أدبيا يعانق فيه الواقع الخيال"[1] .

ومعنى هذا أنّ أدب الرحلة يزاوج بين الحقائق الواقعية والخيال أي أنّه يقدّم الحقائق كما هي في الواقع كما يجنح إلى الخيال أحيانا وهو الذي يتبدّى في توظيف الرحالة للأساليب الفنية التي تظهر حينما يضمّن الرحالة رحلته بعضا من الأشعار والمقامات .

ولا مندوحة لنا من الاعتراف والإقرار بأنّ جلّ المصادر والأبحاث التاريخية تجمع على أنّ هذا الفن بدأ يأخذ طابعا جديا وعلميا أكثر مع بداية **القرن الثالث الهجري (التاسع للميلاد)** على حد تعبير **(شوقي ضيف)**[2] ، وبهذا عُدَّ القرن الثالث بداية التأريخ للرحلات العربية كفن مدوّن، وهو ما أكّد عليه الباحث **(شعيب حليفي)** في قوله:"يمكن اعتبار القرن التاسع ميلادي بداية التأريخ للرحلات العربية المكتوبة مع اتساع دائرة التأليف والتصنيف"[3]. ومن أبرز الكتب المدونة في هذه الفترة كتاب " المسالك والممالك " **لابن خردذابة** وكتاب"البلدان" **لأبي العباس أحمد اليعقوبي** الذي عكس حبه للترحال ودرايته الواسعة بحب الأوطان ، وكتاب "فتوح البلدان" **للبلاذري** أحمد بن يحيى الذي اهتّم بإبراز جوانب تاريخية وجغرافية هامة ، الأمر الذي جعل الباحث **(كراتشوفسكي)** يصفه بقوله:" لقد حفظ لنا البلاذري مادة هامة في محيط

---

[1] بن قينة (عمر): الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999، ص08.

[2] ينظر ضيف (شوقي): الرحلات، ص48.

[3] حليفي (شعيب): الرحلة في الأدب العربي، ص08.

الجغرافية التاريخية يستحيل معها إغفال ذكر صاحبها في عرض للأدب الجغرافي"[1].

ونلمس في هذا الكلام تأكيدا لقيمة هذا الكتاب، ومن الرحلات التي بزغت في هذا القرن أيضا رحلة **سلام الترجمان** التي وصفها الباحث **(زكي محمد حسين)** بقوله:" إنّ رحلة سلام الترجمان إلى الصين الشمالي قد تكون حقيقة تاريخية " [2] ، هذا فضلا عن رحلة **سليمان التاجر** إلى الهند والصين و **ابن وهب القرشي** و**محمد بن موسى المنجم** التي تذكر المصادر أنّه:" قام برحلتين إلى آسيا الصغرى لفحص كهف الرقيم الذي لجأ إليه مجموعة من الشباب هربوا بدينهم وعرفوا باسم أهل الكهف، والثانية مع سلام الترجمان لزيارة سد يأجوج ومأجوج"[3] .

ونستشّف ممّا سبق أنّ القرن الثالث الهجري كان قرنا حافلا بالانجازات المتعلقة بأدب الرحلة الأمر الذي يجعلنا ندرك بأنّ انطلاقة هذا الفن كانت انطلاقة قوية عززّتها جهود الأعلام الذين سبق ذكرهم .

ويعدّ **القرن الرابع الهجري (العاشر ميلادي)** من أزهى الفترات ، إذ "عرف فيه هذا الفن نضجاً وازدهارا لم يعرفه في القرون السابقة أو اللاحقة، حتّى أنّ أسس أدب الرحلة وضعت فيه كما أنّ كتب الرحلات التي ألّفت فيه كانت الأساس الأول الذي قامت عليه الأعمال التالية سواء في الأدب أو الجغرافيا أو الموسوعات أو المعاجم المتخصصة ."[4] ولعلّ مرّد ذلك كثرة التآليف وانفتاح الرحالة على العالم الخارجي بعد أن اقتصرت الرحلة في القرن الثالث على الجزيرة العربية وما جاورها.

---

[1] كراتشكوفسكي(أغناطيوس): تاريخ الأدب الجغرافي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1987، ص161.

[2] محمد حسين(زكي): الرّحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت، 1981، ص15.

[3] قنديل (فؤاد): أدب الرحلة في التراث العربي، ص71.

[4] الموافي (ناصر عبد الرزاق): الرحلة في الأدب العربي، ص85.

ومن هاهنا يمكن القول أنّ القرن الرابع هو عصر الرحلة الذهبي ولا مشاحة في ذلك ففي هذا القرن "بلغ الأدب الجغرافي أَوَجَّهُ في مجال تطوره الخلّاق كحركة مستقلة بذاتها..وقد بلغ عدد الرحالة في هذا القرن حدا كبيرا، كما ارتبطت الجغرافيا ارتباطا وثيقا بالموضوعات الأدبية والعرض الأدبي "[1].

ويذهب الباحث **(حسني محمود حسين)** إلى أن هذا القرن "يمثّل مرحلة النضج التّام بتشكيل ما يسمّى بالمدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية" [2]. ومن الرحالة الذين شهدهم هذا القرن **المسعودي** الذي ألّف كتابا عنونه بـ:"مروج الذّهب ومعادن الجوهر"يقول فيه :"صنّفنا كتابنا في أخبار الزمان وقدمنا القول فيه على هيئة الأرض ومدنها وعجائبها وبحارها وأغوارها، وجبالها وأنهارها، وبدائع معادنها وأصناف مناهلها وأخبار غِيَاضِهَا وجزائر البحار الصغار، وأخبار الأبنية المعظّمة والمساكن المشرفة، وذكر شأن المبدأ وأصل النّسل وتباين الأوطان." [3] ونستدّل من خلال هذا الكلام على أنّ المسعودي كان مهتّما بفن الرحلات ومقدِّرا لقيمته ولا غرو في ذلك لأنّ الحديث عن كلّ هذه الجزئيات لا ينّم إلاّ عن نفس تواقة للرحلة ومُحِبَّةٍ لها .

وتجدر الإشارة إلى أنّ المسعودي أعطى أهمية كبرى للمشاهدة والبحث أثناء الترحال وهو ما نجده ماثلا في قوله :" ليس من لزم جهة وطنه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ووزّع أيامه بين تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كلّ نفيس من مكمنه "[4].

ويذكر الباحث **(فؤاد قنديل)** أنّ:" من رحالة هذا القرن أيضا **أبو دلف (مسعر بن المهلهل)** الرحالة الشاعر الصعلوك الذي زار عديدا من البلاد" [5] ، هذا فضلا

---

[1] المرجع نفسه، ص 86.

[2] حسني محمد(حسين): أدب الرحلة عند العرب، ص12.

[3] المسعودي(الحسن بن علي): مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج 1، موفم للنشر، الجزائر، 1989، ص03.

[4] المصدر نفسه، ص07.

[5] قنديل (فؤاد): أدب الرحلة في التراث العربي، ص37.

عن رحالة آخرين **كابن فضلان** الذي ارتحل إلى بلاد البلغار، فشكلت رحلته صورة واضحة لحضارتهم وعاداتهم وتقاليدهم، **والمقدسي** صاحب كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" وهو الكتاب الذي اعتبره الباحث كراتشوفسكي "من أكثر المصنفات الجغرافية في الأدب العربي قيمة "[1] ، و**الإصطرخي** و**ابن حوقل** وغيرهم كثير .

وبحلول **القرن الخامس الهجري(الحادي عشر ميلادي)** يطل علينا اسم **أبي الريحان محمد البيروني** الذي قام برحلات إلى بلاد الهند وألّف فيها كتابا وسمه بـ:"تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة أو مرذولة"، وهو كتاب "يستحيل اعتباره كتابا جغرافيا، بالمعنى الضيق للّفظ فالمكانة الأولى عنده تحتّلها الحضارة الروحية للهند، وقليل من فصوله الثمانين يمسّ موضوعات جغرافية بحتة" [2] ويفهم من هذا الكلام أنّ أدب الرحلة بدأ يتّسم بالاستقلالية عن التاريخ والجغرافيا ويبرز كفن أدبي له طابعه الخاص .

وفي منتصف هذا القرن شهد أدب الرحلة تحوّلا واتّجه صوب المغرب الإسلامي بعد أن كان مقتصرا على المشارقة وفي هذا يقول الباحث **(محمد مسعود جبران)**:"إنّ الاهتمام بتدوين الرّحلات من أبرز مميّزات الأدب المغربي على الإطلاق، حتّى إنّنا يمكن أن نقول إنّ أهّم ما شارك به المغرب في بناء صرح الثقافة العربية العامة هو مع الأبحاث الفقهية فن الرّحلة" [3] . ومعنى ذلك أنّ المغاربة كانوا مهتمين بهذا الضرب من فن القول الذي عرف ازدهارا سواءً على مستوى الممارسة أو التأليف، خاصة وأنّ المغاربة "عرفوا من قديم بأنّهم متّفقون في أدب الرحلة وموفّقون كذلك، ويدلّ على هذا ما تركوه من بصمات لهم في مختلف كتب التّراث العربي"[4].

---

[1] كراتشوفسكي (أغناطيوس): تاريخ الأدب الجغرافي، ص245.

[2] حسني(محمود حسين): أدب الرحلة عند العرب، ص13.

[3] جبران(محمد مسعود): فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، المجلد الثاني، دار المدار الثقافية، ط1، 2009، ص09.

[4] التازي(عبد الهادي): ابن بطوطة أمير الرحالة، الدار المصرية، القاهرة، 2002، ص92.

ويكاد **القرن السادس الهجري(الثاني عشر ميلادي)** ينافس القرن الرابع في حجم الإنجاز إذ عرف بكثرة التآليف والتّصانيف في هذا الفن ويعدّ **أبو بكر بن العربي** رائدا في هذا القرن ذلك أنّه أوّل من استخدم لفظ رحلة في مؤلّف له وسمه بـ:"ترتيب الرّحلة" ويعتبر بهذا أوّل من وضع أساس أدب الرحلات بالصورة الفنية المأمولة [1]، بل إنّه عدّ خير تمهيد لظهور **ابن جبير** الذي "جاء ليؤصّل هذا الاتجاه في كتابة الرّحلة بصياغة أدبية عالية" [2]، حتّى ليمكن القول بأنّ كتب الرّحلات تبدأ من هذا العهد برحلة ابن جبير الموسومة بـ:" تذكار الأخبار واتفاقات الأسفار" [3] التي ضمّنها جوانب سياسية وحربية واجتماعية واقتصادية وعقائدية تخصّ بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، بل إنّه انفرد بإيراد إشارات لا نجد لها نظيرا في رحلات المسلمين الذين زاروا بلاد الشام في ذلك العصر ومن ثمّ تحتّل رحلته مكانة خاصة من بين ما وصل إلينا من مؤلفات خاصة بالرّحلة الإسلامية إلى هناك .

ومن هذا المنطلق يرى بعض الدارسين أنّ كتابه هذا أحسن ما ألف في فن الرحلات وهو يمثّل ذروته عند العرب، لأنّه ارتقى بهذا الفن إلى مستوى أدبي رفيع وجدد في طابع الرحلة التي اتّخذت طابع اليوميات، واتبعت نظاما زمنيا والترتيب في سرد الأحداث [4] ، إذ يتحرّى فيها المؤلف الدّقة في الوصف والصدق في الإخبار، فتقترب رحلته بذلك من الأدبية أكثر من عرضها للتعبير عن مواقف ابن جبير المختلفة ووصفه للمشاعر وسرد الأعمال الأخرى التي قام بها من تنقلات وزيارات وحج .

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا القرن شهد ثلّة من الرحالة الكبار أمثال" **محمد الإدريسي** " الذي نهل من تجارب سابقيه في تأليفه " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق

---

[1] قنديل(فؤاد): أدب الرحلة في التراث العربي، ص75.

[2] حسني (محمود حسين): أدب الرحلة عند العرب، ص13.

[3] ينظر ابن جبير (محمد): رحلة ابن جبير، موفم للنشر، الجزائر، 1988.

[4] أبو سعد (أحمد): أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي، دار الشرق الجديد، بيروت،ط 1، 1961، ص109.

" وهو كتاب غزير المادة ثري بالمعلومات الجغرافية ووصف الآثار والمسالك ويعد مصدرا هاما لمعرفة المغرب وصقلية على وجه الخصوص، **وأبي حامد الغرناطي** الذي صنّف كتابين وسم الأوّل بـ:"تحفة الألباب ونخبة الإعجاب" والثاني بـ:"المغرب عن بعض عجائب المغرب" ،و **الهروي** * الذي خلّف لنا كتابا أسماه "الإشارات في معرفة الزّيارات" ، **وأسامة بن المنقذ** الذي ألّف لنا كتاب" الاعتبار" .

وابتداء من أواخر هذا القرن تحوّل اتجاه الكتابة في فن الرّحلات إلى الاعتناء بسرد يوميات الرحالة، ومشاعره، وأفكاره، وانتقاداته الشخصية، كما تحوّل الأسلوب فأصبح سردا قصصيا، يتسم بالبساطة والسلاسة، وبهذا انتقلت الرّحلة من الطابع العلمي إلى الطابع الأدبي.[1]

أمّا إذا تجاوزنا **القرن السادس للهجرة إلى القرن السابّع (الثالث عشر للميلاد)** وجدنا مصنّفات لا تقلّ أهمية عن سابقاتها ونخصّ بالذكر مؤلفات كلّ من **ياقوت الحموي** الذي ترك لنا مصنّفا ضخما وهو"معجم البلدان" ** فيه فائدة جمّة لكلّ باحث في هذا المجال ذلك أنّه يمثّل دليلا لمعرفة مختلف الأقطار والأمصار دوّن فيه أخبارا وتفاصيل هامة عن رحلاته، و**ابن سعيد المغربي** صاحب "النَّفحةُ المِسْكِيَّة في الرحلة المكيّة" وهي رحلة ثقافية، دينية، و **العبدري** *** صاحب الرحلة المغربية و**النوشريسي** الذي جاب نواحي المغرب ومصر والشام ودون رحلة قدّم فيها تراجم

---

* السائح الهروي(ت611هـ/1215م): من الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام زمن الحروب الصليبية. ينظر عوض(محمد مؤنس): الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية،القاهرة،ط1،1990، ص265.

[1] ينظر كراتشوفسكي(أغناطيوس): تاريخ الأدب الجغرافي، ص 201 وأنساعد (سميرة): الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص18.

** لمزيد من المعلومات حول هذا الكتاب، ينظر الحموي(ياقوت): معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، 1977.

***العبدري (محمد بن علي بن أحمد بن مسعود): ت 688هـ. ينظر ترجمته في الرحلة المغربية، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر،ط1،2007، ص06.

لكثير من الأدباء الذين لقيهم ، وابن **رشيد السبتي** صاحب "ملء العيبة بما اجتمع لي من طول الغيبة"والتجاني التونسي الذي جال في أرجاء المغرب وطرابلس .

وقد خطت الرحلة في الأدب العربي خطوات أكثر تقدّما في **القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد)** بمستواها الأدبي الراقي واتّساع مجالها الجغرافي وانتقلت إلى مستوى عالمي أوسع وأشمل، خصوصا بعد ظهور الرحلة الأكثر شهرة في أدب الرحلات ، وهي رحلة **ابن بطوطة** الموسومة بـ:"تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" التّي ذكر فيها محقّقها بأنّ ابن بطوطة "أورد فيها أسماء لكثير من الأئمّة، والعلماء والشعراء، والملوك والأمراء هذا فضلا عن أسماء البلاد والبقاع والقرى التي زارها، ومكث فيها، أو مرّ بها"[1]، ممّا ينبئ بأنّ هذا الرّجل كان شغوفا جدّا بالرحلة ولعلّ هذا ما دفع الباحث شوقي ضيف إلى القول :" إنّ ابن بطوطة لم يترك بلدا نزل بها إلاّ وتحدّث عن أهلـــها وسلطانها وعلمائـــها وقضاتها"[2] وبهذا عدّ خاتمة للرحالين المغاربة وأكبرهم خاصة من أولئك الذين انتظم مسار رحلتهم لتشمل كل العالم الإسلامي، انطلاقا من بلده الأصلي طنجة ولهذا حظيت رحلته بكثير من الدراسات العربية الإسلامية وحتى العالمية، حتّى قيل فيه بأنّه:"أشهر من جال في البلاد وجاس في الأمصار، والتقى بالعلماء والملوك، وتزّوج النّساء في أغلب البلدان، وقطع أكثر من مائة وعشرين ألف كيلومتر، وداس جميع الأراضي التي وصل إليها بشر حسب علمه باستثناء دول الشمال وأبرز من كتب عن إفريقيا "[3].

ويعتبر كتاب ابن بطوطة من أعظم كتب الرحلة إمتاعا وجاذبية هذا فضلا عن احتوائه على كم هائل من المادة الجغرافية والإثنوغرافية والأدبية، الأمر الذي جعل بعض العلماء الغرب يشكّكون في هذا الإنجاز الذي اقتنعوا واعترفوا بقدره فيما بعد

---

[1] ابن بطوطة(محمد بن عبد الله): رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الجزء الأوّل والثاني، دار الفكر، بيروت،ط1،دت، ص05.

[2] ضيف(شوقي): أدب الرحلات، ص98.

[3] قنديل(فؤاد): أدب الرحلة في التراث العربي، ص79.

ومنهم الباحث كراتشوفسكي الذي يقّر بأنّ ابن بطوطة"كان آخر جغرافي عالمي من الناحية العملية" [1].ومعنى ذلك أنّه لم يكن نقّالة يعتمد على كتب الغير ، بل كان رحّالة انتظم محيط أسفاره عددا كبيرا من الأقطار، والملاحظ أنّ ابن بطوطة قد نحا بالرحلات إلى نمط جديد يتمثّل في الغرائب والخرافات وهو التغيير الذي جعل منه أشهر رحالي المشرق والمغرب على حد سواء.

ومن الرحلات البارزة في هذه الفترة رحلة **البلوي** المعروفة باسم"تاج المفرق في تحلية علماء المشرق"، ورحلة **ابن خلدون** الموسومة بـ:"التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا" التي تعتبر نموذجا جيّدا لنمط التّرجمة الذاتية (الأوتوبيوغرافيا)، حيث يترجم فيها المؤلّف لسيرة حياته بقلمه.

وأمّا **القرن التاسع** فهو خاتمة عصور الرّحلات في الفترة المتوسطة ومن أهّم الرّحلات التي شهدها هذا القرن رحلة **الحسن بن الوزان** التي تعرف بـ:"وصف إفريقيا".

وإذا كانت الرحلات العربية قد عرفت ركودا وتراجعا ملحوظين في **القرنين التاسع والعاشر الهجريين** بسبب اشتداد وطأة الحروب وتزايد هجمات الأوروبيين على السواحل العربية، خاصة المغربية منها، فإنّ هذا الركود لم يبق ملازما لها ، إذ عادت الرحلة إلى الانتعاش في القرنيين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين بشيوع الطباعة التي بدأت تقوم بدور مهم في نشر بعض الآثار ومنها الرحلة، فاستأنفت منطقة المغرب العربي الإسلامي دورها في فن الرحلة بأعلام مثل **العياشي** * الذي اشتهر برحلته الضخمة "ماء الموائد".

---

[1] كراتشوفسكي(أغناطيوس): تاريخ الأدب الجغرافي، ص421.

* العياشي(1037هـ/1090هـ) : هو أبو سليم عبد الله محمد بن أبي بكر ولقّب بالعياشي نسبة إلى قبيلة آيت عياش قرب تفلايت، وكان محدّثا وعالما صوفيا وشاعرا، من أشهر كتبه:" تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية"، و"اقتفاء الآثار بعد ذهاب أهل الآثار". ينظر بالحميسي(مولاي): الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،ط2، 1981، ص17.

ويشير الباحث **(أحمد أبو سعد)** إلى أهّم الرّحلات التي ظهرت بعد القرن التاسع الهجري بقوله:" فلم يصلنا عن هذه القرون الثلاثة سوى خبر رحلتين أو ثلاث، رحل فيها أصحابها إلى الأضرحة والأماكن المقدّسة، واتّصلوا بأصحاب المقامات من رجال التصوّف لتقبل كراماتهم، الرحلة الأولى هي رحلة عبد اللّه المراكشي العيّاشي الذي سافر إلى مكّة المكرّمة حاجا، وألّف كتابه ماء الموائد المعروف باسم الرّحلة الثانوية، وفيه لم يعد ذكر المدن والقرى إلاّ أمرا ثانويا بالنسبة لموضوع العلماء ورجال التصوف، والثانية هي رحلة عبد الغني النابلسي الرحالة المتصوّف الذي سافر إل مصر، والقدس، وبغداد وزار لبنان من أجل الاتصال بالمتصوفين ،والثالثة هي رحلة علي الجبيلي الشيخ اللبناني"[1].

ويبدو أنّ هذا الباحث قد أهمل بعض الرحلات المهمة التي برزت في هذه الفترة ونخصّ بالذكر رحلات كلّ من **المجاجي ، ومحمد بن علي الرافعي** الأندلسي التطواني صاحب " المعارج المرقية في الرحلة المشرقية" **وأحمد بن الناصر الدرعي** صاحب" الرحلة الناصرية الكبرى"و **الورثيلاني** * **وابن زاكور الفاسي** ** في رحلته الموسومة بـ:"نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان"، وهي رحلة في قسمين يختّص الأوّل بالجزائر وعلمائها أمّا الثاني فيتحدّث عن تطوان ومشايخها.

وسرعان ما بدأ أدب الرحلة في الانتعاش من جديد مع بداية **القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر ميلادي)** حيث بدأ مجال الرحلة يتسع واتخذت الرحلة

---

[1] أبو سعد(أحمد): أدب الرحلات، ص227.

* الورثيلاني الحسين بن محمد (1125هـ/1193هـ): من أعلام الفكر والثقافة والسياسة والإصلاح في الجزائر، من أهّم تآليفه: شرح الوسطى، شرح الخطبة الصغرى للسنوسي، شرح القدسية للأخضري. ينظر شاوش(محمد بن رمضان): إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، المجلّد الثاني، ج3و4، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، دت، ص 106.وبن قينة(عمر): أعلام وأعمال في الفكر والثقافة والأدب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص41.

** ابن زاكور الفاسي (1075هـ/ 1120هـ): أديب ورحالة وشاعر مغربي. ينظر بالحميسي (مولاي): المرجع السابق، ص19.

وجهة متميّزة نحو أوروبا وكان في مقدمة الرحالين عربيا **رفاعة رافع الطهطاوي** في رحلته إلى باريس، و**خير الدين التّونسي**،و**شهاب الدين الألوسي** و**عبد الله فكري** ، و**أحمد فارس الشدياق، وسليمان البستاني**[1] .

ويواصل هذا الفن مسار تطوره في **القرن الرابع عشر الهجري (العشرين ميلادي)** بفعل نضج التّفكير وزيادة الوعي بهذا الجنس الأدبي الأمر الذي نتج عنه ظهور عدد كبير من الرحالة كطه حسين، ومحمد حسين هيكل، وحسين فوزي ، وأمين الريحاني وكثيرون غيرهم.

وصفوة القول تتجلى في أنّ مسيرة هذا الفن طويلة جدا عرف خلالها هذا الجنس الأدبي فترات نضج كما هو الحال بالنسبة للقرن الرابع الهجري وفترات فتور أو ضعف كما هو الحال في القرنيين التاسع والعاشر الهجريين إلاّ أنّ ذلك لم يمنع الباحثين من الاهتمام به والكتابة فيه.

[1] ينظر حسني(محمود حسين): أدب الرحلة عند العرب، ص15.

4- طبيعة الرحلة في الجزائر :

لقد اهتم الباحثون الجزائريون كثيرا بفن الرحلات وألّفوا فيها كثيرا من المصنّفات التي لا يمكن الاستغناء عنها لكل باحث في هذا المجال ، وفي هذا الإطار ارتأينا أن ننوّه بالجهود التي قدمّها (**أبو القاسم سعد الله)** في كتاباته "تاريخ الجزائر الثقافي"، "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر"، "تجارب في الأدب والرحلة"وغيرها من الدراسات التي ركزّت حديثها عن أدب الرحلة وإسهامات الجزائريين فيه، والتي كان الكثير منها مجهولا عند كثير من المشتغلين بهذا الحقل المعرفي في الجزائر وخارجها.

وإذا كان الباحث (**أبو القاسم سعد الله**) قد اهتّم بالرحلات الجزائرية القديمة والتي تخصّ الفترة العثمانية على وجه التحديد فإنّ الباحث **(عمر بن قينة)** قد صبّ جلّ اهتمامه على الرحلات الحديثة وهو ما لمسناه في مؤلفاته "اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة" ، "رحلات ورحالون في النثر العربي الجزائري الحديث"، "الشّكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة" و هي عبارة عن فصول لأطروحته الموسومة بـ:"أدب الرحلة في النثر الجزائري الحديث" .

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّنا لم نعثر على باحثات مهتمات بهذا المجال في القطر الجزائري باستثناء دراسات الباحثة **(سميرة أنساعد)** في كتابيها "الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري دراسة في النشأة والتطور والبنية" و"الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري".

هذه إذن بعض الدراسات التي ارتأينا أن نبسطها للقارئ علها تفيده في الإحاطة بهذا الفن بالجزائر ومعرفة المشتغلين به.

ومن هذا المنطلق كان لزاما علينا أن نذكّر بأهم الإنجازات التي أسهم بها الجزائريون في هذا الفن قديما، وفي ذلك يقول الباحث (**عبد الله الركيبي)** :" لقد أسهم الرحالون الجزائريون في عهد الأتراك بمجهودات كثيرة ولاسيما تلك الرحلات الدينية التي كان يقصد منها لقاء شيوخ الطرق الصوفية والاجتماع بهم أو السّفر لآداء فريضة الحجّ، وبعض هذه الرحلات طبع حديثا والبعض الآخر لازال مخطوطا

حتّى اليوم"[1] .ومعنى ذلك أنّ أغلب الرحلات التي دوّنت في تلك الفترة كان يغلب على أصحابها الطابع التعبدي ومن ثم كانت رحلاتهم حجازية.

ويرى الباحث (عمر بن قينة) أنّ مساهمة الجزائريين في كتابة الرحلات كانت واضحة خلال القرن الثامن عشر للميلاد، الذي شهد نشاطا معتبرا في المناخ الجديد الذي برزت فيه المطبعة فنشطت حركة الطبع والنشر وهو نشاط عكسته نماذج معتبرة بمادتها ورجالها وقضاياها[2].

ويقرّ الباحث أبو القاسم سعد الله بأنّ الجزائريين كانوا قليلي الإنتاج في هذا الفن قياسا مع كتاب الرحلات المغاربة، و هو ما نجده ماثلا في قوله:" وبالمقارنة مع بعض الأقطار العربية والإسلامية الأخرى كالمغرب، فإنّ ما وصل إلينا من الرحلات الجزائرية يعتبر قليلا وأغلب ما وصل إلينا مكتوب خلال القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر الميلادي)"[3] ويبدو أنّ قلّة إنتاج الجزائريين في هذا الفن مردها إلى أنّ عددا من العلماء الذين توزّعوا في العالم الإسلامي كعيسى الثعالبي ويحيى الشاوي وأحمد المقري وأحمد بن عمار لم يعودوا إلى الجزائر ليكتبوا ملاحظاتهم .

ومن هاهنا يمكن القول بأنّ الجزائريين لم يحفلوا كثيرا بالرحلات خلال العهد السابق للعثمانيين، ومن أقدم الرحلات التي تنسب إلى ذلك العهد رحلة **التجيبي التلمساني**(730هـ) وقد ذكر الكتاني أنّ رحلة التجيبي تقع في عدة مجلدات، اطلّع هو على واحد منها في تونس، ولقب صاحبها بـ:"مفخرة تلمسان" [4]. ولعله المجلد الوحيد المعروف من الرحلة إلى الآن والذي يخصّ أخبار سفر التجيبي وتنقلاته إلى

---

[1] الركيبي (عبد الله): تطوّر النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1974، ص48.

[2] ينظر بن قينة(عمر): في الأدب الجزائري الحديث تأريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما، ص99.

[3] سعد الله(أبو القاسم): أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الأوّل، دار الغرب الإسلامي،بيروت، ط3،1990،ص179.

[4] سعد الله(أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي، من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر،ط2،1985،ص396.

الديار المصرية ، وجدة ومصر ومكة المكرمة،سنة(696هـ/1296م)، إذ نشر هذا الجزء منها بعنوان "مستفاد الرحلة والاغتراب"[1].

وقد أخبر المقري في كتابه "نفح الطيب" بأنّ جده محمد بن محمد أبا عبد الله المقري التلمساني قد ألّف رحلة مشرقية سمّاها"رحلة المتبتّل"،وهي رحلة علمية ودينية قصد منها طلب العلم والقيام بالحج، [2] وقد زار خلالها حواضر العلم المشهورة كالقاهرة ودمشق، ومكة وفي النفح أخبار كثيرة عن رحلة محمد المقري الجد ، وعن العلماء والأعلام الملاقين له، مع تراجم لهم وسرد لأهم مؤلفاتهم[3].

وتذكر المصادر أنّ هناك رحلة **لابن قنفذ القسنطيني** *الشهير بابن الخطيب والتي تعتبر اختصارا لرحلة العبدري المعروفة بالرحلة المغربية .ويشير الباحث **(بشير ضيف)** إلى أنّ رحلة ابن قنف ذ تحمل عنوان "المسافة السنية في الرحلة العبدرية"،وقيل :"المسافة السنية في اختصار الرحلة العبدرية"[4] وهي مفقودة، إلاّ أنّنا عثرنا على رحلة أخرى لابن قنفـذ موسومة بـ:"أنس الفقير وعزّ الحقير" التي يذكر فيها أنّه ارتحل إلى تلمسان وأخذ عن شيوخها التفسير والحديث والنحو والأدب ، وأنّه أقام بالمغرب ثمانية عشر عاما (759هـ/776هـ) ، طاف فيها ربوع المغرب ولقي

---

[1] ينظر التجيبي (القاسم بن يوسف): مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، دط، 1975.

[2] نويهض (عادل): معجم أعلام الجزائر، المكتب التجاري، بيروت، ط1971،1، ص180.

[3] ينظر المقري (أبو العباس): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، ص223.

* ابن قنفذ القسنطيني (740هـ/809هـ): هو أبو العباس أحمد بن الحسين الملقب بالقسنطيني نسبة إلى مدينة قسنطينة، من مؤلفاته: سراج الثقات في علم الأوقات، أنس الحبيب عند عجز الحبيب. ينظر ابن قنفذ القسنطيني(أبو العباس): الوفيات، تحقيق عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والنشر والترجمة، بيروت،ط1982،3، ص07.

[4] ضيف (بشير): فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث، منشورات ثالة، الجزائر، 2007، ص319.

عددا من المتصوفين وزار أضرحة الصالحين ومن بين المدن والنواحي التي زارها آسفي، سلا، دكالة، مراكش، وغيرها[1].

ويعد **محمد بن عبد الكريم المغيلي** رائدا لفن الرحلة بإقليم توات ، حيث ارتحل إلى الحج منطلقا من بلاد التكرو ر* والتقى في طريقه بجلال الدين السيوطي وأجرى معه مناظرات في المنطق والحديث.

ومما سلفت الإشارة إليه يتضّح لنا أنّ الرحلات الجزائرية التي برزت في الفترة التي سبقت العثمانيين كانت محدودة جدا، ولكن رغم ذلك لا يمكن تجاهلها .

أمّا إذا انتقلنا للحديث عن الرحلات التي ظهرت خلال العهد العثماني وجدناها متنوعة بتنوّع الأهداف والمقاصد ولعلّ هذا ما حدا بالباحث **(مولاي بلحميسي)** إلى القول:"عندما زاد على الرحلة الإقبال تنوّعت الأغراض وتعدّدت الموضوعات وتطوّر هذا الفن الأدبي كمًّا وكيفا ، وأصبح من الأهمية بمكان بحيث لا تكتمل ثقافة الإنسان بدونه،كما أصبح من المصادر التاريخية"[2]

ونستشّف من خلال هذا الكلام أنّ الرحلات الجزائرية التي ظهرت في هاته الفترة كانت وثائق تارخية هامة في ظل الغياب الصارخ للمدونات التي تخص تاريخ الجزائر في هذه الفترة على وجه الخصوص، والتي دامت أكثر من ثلاثة قرون .

ومن هذا المنطلق يمكن لنا أن نميّز بين نوعين من الرحلات تعرف الأولى منها بالرحلات الحجازية وهي تلك التي يُقصَدُ منها آداء مناسك الحج والثانية بالرحلات العلمية وهي تلك التي يهدف أصحابها إل طلب العلم والاتصال بالعلماء . وفي النوع الأوّل يقول الباحث **(أبو القاسم سعد الله)** :" إنّ الجزائريين الذين توجهوا إلى الجزيرة العربية خلال العهد العثماني لم يذهبوا إليها كجغرافيين أو مؤرخين أو سواح، وإنّما توّجهوا إليها حجاجا يؤدون الفريضة ويزورون الحرم الآمن، لذلك كانت

---

[1] ينظر ابن قنفذ القسنطيني(أبو العباس): أنس الفقير وعزّ الحقير، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص71.

* التكرور: مدينة تقع شمال مالي.

[2] بالحميسي(مولاي): الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ص10.

قلوبهم إلى البقاع المقدّسة تسبق أرجلهم وخيالهم يتجاوز مرمى أبصارهم وأشواقهم إليها تنسيهم آلام الطريق ووعثاء السفر"[1].

وتشير المصادر إلى أنّ من أبرز الرحلات العلمية رحلة **عاشور بن موسى القسنطيني** المعروف بالفكيرين الذي ارتحل إلى عدة بلدان لطلب العلم كالمغرب الأقصى وتونس الأمر الذي مكنّه من معرفة طبائع الشعوب وعاداتها وتقاليدها، وقد اختلف المؤرخون في مسألة تدوين هذه الرحلة الأمر الذي جعل واحدا منهم يتساءل عن مصيرها حيث يقول:" فإنّنا لا نعرف أنّ عاشور قد ترك رحلة مكتوبة، فهل كتب رحلته أو اكتفى بقصها شفويا على تلاميذه وغيرهم ؟ ذلك ما لا نعلمه أيضا، فإذا كان قد كتبها فهي لم تصل إلينا، وإذا لم يكتبها فالغالب أنّها قد أمليت على بعض التلاميذ الذين كانوا يعجبون بأخباره وغرائبه"[2] ومن هنا يمكن القول إنّ رحلة عاشور بن موسى القسنطيني هي رحلة مسموعة لا مقروءة .

وتعتبر رحلة **عبد الرّزاق بن حمادوش** الموسومة بـ:"لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال" نموذجا للرحلات العلمية المكتوبة بالجزائر خلال القرن الثامن عشر، وهي الرحلة التي سيأتي الحديث عنها مفصّلا في الفصول اللاحقة .

ومن الرحلات غير الحجازية أيضا رحلة **الحاج بن الدين الأغواطي** إلى الصحراء التي [1]يقول الباحث **أبو القاسم سعد الله** بأنها:"مكتوبة سنة 1242هـ، وأنها تقع في كراسة تحتوي على أربعة عشر صفحة، ولكنها على غاية في الأهمية لكونها تحوي معلومات قيمة عن عدة مناطق بالجنوب الجزائري"[3].

أمّا إذا تحدّثنا عن الرحلات الحجازية وجدنا تتفرع إلى شعرية ونثرية، وهي كثيرة جدا إذ لا يمكن أن نحصرها ويكفي هاهنا أن نعرض بعض النماذج التي توضح للمتلقي غايتنا.

---

[1] سعد الله (أبو القاسم): أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الأول، ص177.

[2] سعد الله (أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي، ص397.

[3] المرجع نفسه، ص400.

أ -**الرحلات الشعرية :**

ويقصد بها تلك الرحلات التي نظمها أصحابها شعرا ،ويمكن أن نمثّل لهذا النوع بقصيدة مطولة كتبها **أبو عثمان بن سعيد بن عبد الله المنداسي التلمساني السجلماسي** سنة 1008هـ،بالمغرب الأقصى بعد عو دته من الحجاز وهي القصيدة المعروفة باسم "العقيقة" وهي تتضمن مدحا للرسول ووصفا للبقاع المقدّسة وآثار الحجاز ومنازله وذكرياته الغابرة ولعلّ هذا ما جعلها تصنّف في خانة الرحلات الحجازية. ونظرا لأهمية هذه القصيدة فقد لاقت اهتماما كبيرا من طرف الباحثين والمؤلفين الأمر الذي جعلهم يقدّمون لها شروحا وتعاليق كثيرة أضافت إليها معلومات كثيرة ، ومن ذلك شروح **ناصر أبو راس المعسكري** *الذي يذكر في رحلته بأنّها سبعة منها: "الدرة الأنيقة في شرح العقيقة"،"طراز شرح المرداسي لقصيدة المنداسي" و"الحلل السندسية في شرح القصيدة السعيدية"، "الجمان في شرح قصيدة أبي عثمان" و"نظم الأديب الحسيب الجامع بين المدح والنسيب والتشبيب"[1].

ويصف الباحث **(أبو القاسم سعد الله)** أسلوب هذه القصيدة التي تمتاز بتضمنها لأساليب بلاغية وفنية تظهر براعة صاحبها وتفوّقه بقوله :"والعقيقة قصيدة في مدح الرسول وصحابته، كتبها المنداسي بالعامية الفصحى، أو الفصحى العامية وهي ليست قصيدة بسيطة، لا في نعتها ولا في معانيها، لأنّها احتوت على تراكيب غريبة، وعلى تواريخ وحوادث تحتاج إلى توضيح، واطّلاع واسع، وقد سلك الشاعر مسالك بلاغية معقّدة، ومسالك لغوية أكثر تعقيدا" [2] ويبدو أنّ مقصد المنداسي من كتابته لهذه القصيدة بالعامية هو تقريب معانيها من العامة .

---

* ناصر أبو راس المعسكري(1150هـ/ 1238هـ): مؤرّخ وحافظ له مشاركة في الفقه والأدب والحديث ، من مؤلفاته: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، الخير المعلوم في كل من اخترع نوعا من أنواع العلوم. ينظر ابن حنفية(عبد القادر عابدين): أبو راس الناصري المعسكري حياته وتصوفه، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص38.

[1] ينظر أبو راس (محمد ناصر): فتح الإله ومنته في التحدّث بفضل ربي ونعمته، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص181.

[2] سعد الله(أبو القاسم): أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص180.

ومن أمثلة الرحلات الشعرية خلال القرن الثاني عشر رحلة **محمد بن المسايب** التي سجلّ فيها تنقلاته من مدينة تلمسان إلى مكة المكرمة ووصف فيها عواطفه نحو الرسول، كما وصف الأماكن التي مرّ بها في قصيدة وسمها بـ:"يا الورشان اقصد طيبة" والتي مطلعها:

يَا الوَرْشَانْ اقْصَدْ طِيبَـة وسَلَمْ عَلَى السَاكَنْ فِيهَا
لاَ تْخَمَمْ فِي أَمْرْ الغِيبَـة ولاَ تْحَدَّثْ نَفْسَـكْ بِهـَا[1]

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ هناك شاعرين آخرين من تلمسان اشتهرا بنظم الرحلات الشعرية بالملحون ونقصد بذلك **ابن التريكي والزناقي** وهومعاصران لابن المسايب.

ومن بين الرحلات الشعرية أيضا رحلة عبد الرحمن بن محمد الخروب المعروف بـ:"**المجاجي**" وهي موجودة بالمكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة تحت رقم 1565/1564، وقد قامت بدراستها وتحقيقها الباحثة **(حميدة زعيتر)**[2] .

وتتضمّن هذه الرحلة أخبارا كثيرة عن الأضرحة والأولياء الذين زارهم المجاجي والعلماء الذين لقيهم أثناء سفره انطلاقا من مكة ومرورا بليبيا وتونس وصحراء الجزائر ووصولا إلى مجاجة، وهو ما يمكن أن نستشّفه من قوله:

وزُرْنَا بِهَا مَنْ كَانَ ثُمَّ ضَرِيحَهُ مِنَ العُلَمَاءِ الفَاضِلِينَ الأَجِلَّةِ
وعَامِرِ الفَوَالُ أَيضًا لَقَيْتُـــــهُ تَبَرَّكْتُ بِهِ واغْتَنَمْتُ بدَعْـوَةٍ [3]

وتعدّ قصيدة **محمد بن منصور العامري التلمساني** التي فرغ منها سنة 1162هـ وهي قصيدة همزية متوسطة الجودة وصف فيها مراحل رحلته من تازة حيث كان يقيم

---

[1] ابن المسايب التلمساني(محمد): الديوان، إعداد وتقديم الحفناوي أمقران السحنوني وأسماء سيفاوي،الجزائر، 2007، ص100.

[2] ينظر زعيتر(حميدة): رحلة المجاجي عبد الرحمن بن الخروب، دراسة وتحقيق، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2009/2008.

[3] المجاجي(عبد الرحمن): الرحلة، مخطوط، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1564و1565، وجه الورقة رقم 4.

إلى الحرمين الشريفين ثم إلى الشام من أبرز القصائد المكتوبة بالفصحى ، وقد ابتدأها بقوله:

أَزْمَعَ السَيُر أَنْ دَهَتْ أَدْوَاءُ لَشَفِيعُ الآنَامِ فهُو الدَوَاءُ[1]

وصفوة القول تتجلى في أنّ الرحلات الشعرية المكتوبة بالجزائر كانت قليلة إذا ما قيست بالرحلات الحجازية النثرية.

ب- الرحلات النثرية :

تعتبر الرحلات النثرية من أكثر الرحلات وفرة بالجزائر،لأنّ " النثر هو الموطن الطبيعي للرحلة"[2] فهو أقرب إلى الواقعية و أنسب لعرض الحقائق وهو الأمر الذي ينسجم مع طبيعة الرحلة، التي هي في حقيقتها إعادة سرد للواقع ونقل له بكل تفاصيله ولهذا يؤكد الباحث أبو القاسم سعد الله على:" أن تكون الرحلات نثرية، يتحدّث فيها أصحابها عن مشاهداتهم وملاحظاتهم بلغة واقعية أو قريبة من الواقع"[3].

ولمّا كانت الرحلة كذلك فقد نالت اهتمام كثير من الجزائريين الذين ألّفوا فيها العديد من المصنفات التي أفاد منها الباحثون والمؤرخون فقدّمت رحلاتهم صورة صادقة عن بلادهم وعن البلدان التي حلّوا بها، ومن هذه الرحلات رحلة **المقري أبو العباس** أحمد بن محمد بن أحمد بن يحي بن أبي العيش [4] الموسومة بـ:"رحلة في المشرق والمغرب" ، وهي من أولى رحلات القرن الحادي عشر هجري الذي شهد تأليف رحلة أخرى وهي رحلة **أحمد البوني** الحجازية التي أسماها"الرّوضة الشهية في الرحلة الحجازية". وقد أورد فيها أخبارا هامة عن شيوخه حتّى أنّ ابنه أحمد الزروق نصح بقراءتها في قوله:" فعليك به فإنّ فيه طرفا وظرفا"[5] ونستدل من خلال

---

[1] سعد الله(أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص402.

[2] نصار (حسين): أدب الرحلة، ص103.

[3] سعد الله (أبو القاسم): أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص178.

[4] المقري (أبو العباس): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ص03.

[5] سعد الله (أبو القاسم): المرجع نفسه، ص182.

هذا الكلام على أنّ الرحلة لم تكن تتحدّث عن المسائل العلمية والشيوخ فحسب بل إنّ فيها أمورا كثيرة نجهلها بسبب الضياع.

ومن الرحلات التي برزت أثناء القرن الثاني عشر للهجرة رحلة **أحمد بن عمار** المشهورة بـــ"نحلة اللّبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب" وهي في ثلاثة أقسام كما صرح بذلك في قوله:" ورتبتها على مقدمة حاتمة، وغرض مقصود، وخاتمة، فأما المقدمة ففي ذكر ما أنتجه العزم وتقدم على الارتحال، وأمّا الغرض المقصود ففي ما يحدثه السفر إلى الإياب، وحط الرّحال، وأمّا الخاتمة ففي ما نشأ عن ذلك بعد السكون وانضم إليه"[1] . ونستشف من خلال هذا الكلام أنّ القسم الثاني هو الأساس الذي تقوم عليه الرحلة كلها لأنّه يتضمن حديثا عن السفر و الإياب وحط الرّحال.

وتجدر الإشارة إلى أنّ ما وجد من الرحلة هو الجزء الأول فقط أي المقدمة وهي مطبوعة في مائتين وأربعين صفحة تحت عنوان:"نبذة من الكتاب المسمى نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب" وقد تحدث فيها عن دواعي تأليفه للرحلة وسبب تسميتها وهو ما أشار إليه في قوله:" لمّا دعتني الأشواق إلى مشاهدة الآثار ، والأخذ من الراحة بالثأر، وأن أهجر الأهل والوطن، وأضرب عرائض البيد بعطن، وأن أخلع على السالكين الكرى وأمتطي ظهر السّهر والسّرى، لبّيت داعيها ... ولمّا انبرى هذا العزم وانبرم ، والتظى لاعج الشّوق وانضرم شرعت إذ ذاك في المقصود وأعددت طلسم ذلك الكنز المرصود وأخذت في أسباب السفر وكثيرا ما كان يصدر عنّي في هذه الحالة من المقطعات الشعرية والموشحات السّحرية والتقريضات الزهرية ما يثير الأشواق الغالبة فأحببت أن أدخل ذلك في خبر الرحلة ولما شرعت في التقييد والجمع لما يجتليه البصر ويتشّنّفه السمع عزمت على تسمية ما أسطّره بنحلة اللبيب بأخبار الرحلة عن الحبيب"[2]. والمتأمل في هذا القول يجد أن ابن عمار وإن كان قد أفاض في وصف مشاعره الذاتية إلاّ أنّه أجاد التعبير عنها بأسلوب يروق له السمع .

---

[1] ابن عمار(أحمد): نبذة من الكتاب المسمى نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مطبعة بيير فونتانة، الجزائر، 1902، ص03.

[2] المصدر نفسه، ص04.

ويعد **الورثيلاني** من أكثر الرحالة الجزائريين اهتماما بالتاريخ وهو ما يمكن أن نستخلصه من رحلته التي وسمها بـ"نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"وهي رحلة قيّمة قلّما يعثر الباحث عن معلومات قيّمة كالمعلومات التي ذكرت فيها، ونظرا لأهميتها فقد لاقت اهتماما كبيرا من طرف الباحثين فوصفوها بأنّها" أنفس تصنيف رصّعت جواهره في وطن الجزائر، وأعلق تأليف اشتهر بين البوادي والحواضر، لاشتماله على عوارف المعارف، وظرائف الطرائف، وأوابد العوائد، وفرائد الفوائد، ونسق الأوصاف الكاملة، وحلّ المسائل الشائكة، تارة راتعا في رياض الفقه والحديث والتوحيد، وتارة واردا عياض التفسير والتاريخ والتجويد، وآونة طامحا في التصوف والنصح والوعظ باذلا في ذلك كله غاية الجهد والنكظ فاصلا جمانة بمرجان الحكايات الأنيقة ومرصّعا وشاحه بياقوت الأشعار الرقيقة وغير ذلك ممّا هناك" [1]. وانطلاقا من هذا القول يحقّ لنا أن نسمي هذه الرحلة موسوعة لأننـــا نجد فيهـــا من الأخبار ما يؤهلها لكي نطلق عليها هذا الاسم.

وقد أورد **الورثلاني** في مقدمة رحلته أنّه أنشأ رحلة عظيمة "يستعظمها البادي ويستحسنها الشادي، فإنّها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار" [2] والمتأمل في هذا الكلام والقارئ لمتن هذه الرحلة يجد أنّ الورثيلاني كان محقًّا في وصفه لها على هذا النحو .

ويذهب الباحث **(عمر بن قينة)** إلى أنّ هذه الرحلة"من أحسن ما ختم به القرن الثاني عشر الهجري في مجالها لا لطابعها الفكري والأدبي فحسب ، بل لما انعكس فيها أيضا من أوضاع مختلفة في الوطن العربي اقتصادية وثقافية واجتماعية وسياسية كذلك إضافة إلى الجانب الديني"[3].

---

[1] الورثيلاني(الحسين): نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق محمد بن أبي شنب، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006، ص03.

[2] المصدر نفسه، ص03.

[3] بن قينة (عمر): أدب الرحلة في النثر الجزائري الحديث، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 1992، ص22.

وقد برزت بعد ذلك رحلة تختلف في طابعها عن سابقاتها لكونها علمية أكثر منها دينية، اهتّم فيها صاحبها بذكر علمائه وشيوخه وهي رحلة **ناصر أبو راس المعسكري** التي تنسب إلى القرن الثالث عشر للهجرة وقد أطلق عليها عدة أسماء منها" عدتي ونحلتي في تعداد رحلتي" ومنها"فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" وهي الرحلة التي قام بتحقيقها محمد بن عبد الكريم الجزائري وهي تقع في مائة وثمانين صفحة ،موزعة على خمسة أبواب يتصدرها مقدمة قام بكتابتها محقق الرحلة.

والقارئ لهذه الرحلة يجد أنّ سيرة الكاتب الذاتية تكاد تغطي معظم مادة الكتاب، والدليل على ذلك أنّه خصص بابا كاملا تحدّث فيه عن نشأته وبيئته وهو الباب الأول وقد وسمه بـ"ابتداء أمري" أمّا الباب الثاني ففيه حديث عن أبرز الشيوخ الذين أخذ عنهم وقد عنونه باسم "في ذكر أشياخي النافضين عني قشب أوساخي شريعة، وحقيقة، وقرآنا، وطريقة"وسمى الباب الثالث "في رحلتي للمشرق والمغرب وغيرهما، ولقاء العلماء الأعلام وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام"وهو الجزء الوحيد الذي له علاقة بالرحلة في هذا الكتاب،أمّا الرابع فيتناول إجابة عن بعض المسائل التي طرحت عليه وقد عنونه بـ "في الأسئلة وما يتعلّق بها" وعنون الباب الخامس بـ"العسجد والإبريز في عدة ما ألّفت بين بسيط ووسيط ووجيز" وفيه حديث عن تآليفه.

وقد أبدى أبو راس في هذه الرحلة اهتماما كبيرا بالعلم والعلماء وهو ما نلمسه في عدة مواضع من الرحلة منها قوله:"وأما العلامة الشرقاوي فلقبني في إجازته بشيخ الإسلام – أسكنه الله دار السلام– وقرأت عليه مذهب الشافعي –رضي الله عنه– فما رأيت أبرك من لقائه ولا أحسن من إلقائه"[1].

وليست رحلة الناصري هي الرحلة الوحيدة التي ضمّنها صاحبها حديثا عن سيرته الذاتية فهناك رحلات أخرى اهتمت بذلك كرحلة الأمير عبد القادر الجزائري الحجازية التي تحدّث عنها في كتابه:"مذكرات الأمير عبد القادر الجزائري". الذي

---

[1] أبو راس(ناصر): فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته، ص117.

ذكر فيه بأنّه جال في عدة بلدان كالشام وبغداد والإسكندرية وجدة وغيرها، هذا فضلا عن حديثه عن زياراته للأولياء الصالحين والأضرحة ولقائه بالعلماء.

ويضاف إلى قائمة الرحلات الجزائرية رحلة أخرى لا تقل أهمية عن سابقاتها وهي رحلة المشرفي الموسومة بـ"الرحلة العريضة في آداء الفريضة" وهي رحلة حجازية كما يبدو من العنوان . وللمشرفي رحلات نثرية أخرى غير هذه الرحلة منها"رحلة إلى شمال المغرب وقد ألّفها سنة 1306 عندما رافق السلطان الحسن الأول إلى نواحي طنجة ، الرحلة الجزائرية ،الرحلة السوسية وهي الرحلة المعروفة باسم نزهة الأبصار لذوي المعرفة والاستبصار[1].

ونستشف من خلال ما سبق أنّ الجزائريين كانت لهم مساهمات واضحة في الأدب الرحلي خاصة في العهد العثماني على اعتبار أنّ أغلب الرحلات التي ذكرناها برزت فيه وقد كان تركيزنا منصبًّا على الرحلات القديمة فقط على اعتبار أنّ الرحلة موضوع الدرس أي رحلة ابن حمادوش تنتمي إلى القرن الثاني عشر هجري الثامن عشر للميلاد .

ونحن لا ندّعي في بحثنا هذا أنّنا استقصينا كل الأعلام الذين كتبوا في أدب الرحلة في الوطن العربي وفي الجزائر على وجه التحديد لأنها كثيرة جدا وتأخذ مساحة واسعة في بحثنا، بل إنّها تحتاج إلى دراسات مستقلة وما النماذج التي اخترناها إلاّ غيض من فيض وفي هذا السياق يقول المقري:"إنّ حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يعلم ذلك إلاّ علاّم الغيوب ...ولو أطلقنا عنان الأقلام فيمن عرفناه من هؤلاء الأعلام ، لطال الكتاب وكثر الكلام ولكنّنا نذكر منهم لمعا على وجه التوسّط من غير إطناب داع إلى الإملال واختصار مؤدٍ للملام "[2] .

---

[1] سعد الله (أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء السابع، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط1998،1، ص465.

[2] المقري (أبو العباس): نفح الطيب، ص05.

الفصل الثاني:

رحلة ابن حمادوش بناؤها الفني وموضوعاتها

1- سيرة ابن حمادوش وارتباطها بالرحلة.

2- قراءة في العتبة.

3- البناء الفني للرحلة.

4- مضامين الرحلة وموضوعاتها.

5- رحلاته وتأثيرها على أدبه.

قبل الخوض في غمار هذه الدراسة ارتأيت أن أُقِرَّ بأنّ قراءتي لهذه الرحلة في البداية كانت قراءة عابرة لم تثر فيّ أيّ نبض ولكن فضولي قادني إلى قراءتها لمرات متتالية، فكنت أحسّ في كلّ مرة بأنّني أكتشف شيئا مختلفا عن الذي لمسته في القراءة الأولى وكان هذا حافزا دفعني إلى إعادة قراءة هذا النص الرحلي المتميّز والتعاطف معه ذلك أنّ" التعاطف مع النص ضروري للدخول إلى عالمه الحميم"[1].

ولماّ كانت رحلة ابن حمادوش مجهولة عند جمهور القراء كان لزاما عليّ أن أستوقف عند وصف هذه الرحلة ومن ثم إلى تقديم فهم أولي للمضمون ثم دراسة جزئياته ثم الاستفادة من الحدس في إجلاء الغموض عن هذا النص .

تحتوي رحلة ابن حمادوش على ثلاثمائة وستٍ وستين صفحة من الحجم المتوسط، وعدد السطور في كل صفحة حوالي ثمانية وعشرين سطرا، طبعت بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية بالجزائر، سنة ثلاث وثمانين وتسع مائة وألف ميلادية، حقّقها الباحث أبو القاسم سعد الله وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه النسخة –التي اعتمدنا عليها– تخصّ الجزء الثاني من الرحلة فقط وهو الذي خصّصه ابن حمادوش للحديث عن رحلته إلى المغرب أمّا بقية أجزاء الرحلة فلم يتوصّل الباحثون إليها.

وقد أشار الباحث أبو القاسم سعد الله إلى أنّ "النسخة الوحيدة من المخطوطة موجودة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 463، وهي في شكل مسودة" [2]، هذا عن الجانب الشكلي للرحلة، أمّا إذا تحدّثنا عن مضمونها وجدناه ثريًّا ومتنوعا إذ لم يقتصر حديثه عن المغرب وثقافته وعاداته وتقاليده وعلمائه بل إنّنا نجد في رحلته أخبارا هامة عن الجزائر في العهد العثماني وعن حياته وتنقلاته في المغرب والجزائر ومعاناته الشخصيـــة هذا فضلا عن تضمينـــه في هذه الرحلة للأشعار والمقامات

[1] ناظم(حسن): البنى الأسلوبية، المركز الثقافي العربي، المغرب،ط1 ،2002،ص37.

[2] ينظر سعد الله(أبو القاسم): أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط3 ،1990،ص229.

والقصص والأمثال والأساطير وعقود الزواج والإجازات وبعض التراجم ونقول من بعض الكتب ككتاب الدول للمالطي وكتاب الكردبوسي وغيرها . هذه إذا بعض التفاصيل حول هذه الرحلة وبعضها الآخر سنفصل الحديث عنه في ثنايا هذه الدراسة.وبما أنّ الرحلة لها ارتباط بحياة الرّحالة فقد ارتأينا أن نضع تعريفا موجزا بشخصية ابن حمادوش قبل الولوج في ذكر تفاصيل الرّحلة.

1- سيرة ابن حمادوش وارتباطها بالرّحلة:

عاش عبد الرّزاق بن محمد المعروف بابن حمادوش الجزائري خلال القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر ميلادي). ولد بمدينة الجزائر سنة (1107هـ/1695م) وتوفي بعد حوالي تسعين سنة بالمشرق على بعض الظنّ، سنة 1197هـ[1]، لكن اشتهر ضريح له قرب مدينة سيدي بلعباس، بقرية سميث بسيدي حمادوش [2]، وقد درس ابن حمادوش في وطنه وتقلّد بعض الوظائف الدينية، ولكنه منذ العشرينات من عمره أخذ يجوب العالم الإسلامي، فبدأ بالحجّ ثمّ قام برحلة إلى المغرب الأقصى سنة 1156هـ. لقّب والده بالدّباغ لامتهانه الدّباغة غير أنّ ابن حمادوش عاش فقيرا لأنّه امتهن العلم لا الدّباغة. وخلال عمره الطويل عاصر ابن حمادوش أحداثا هامة في بلاده وفي العالم، فقد استقلّت الجزائر أو كادت عن الدولة العثمانية في عهد حكم الدايات كما عاصر ابن حمادوش تسلّط اليهود الاقتصادي وخصوصا اليهود المهاجرين من أوروبا وعلى المستوى الإسلامي فقد شهد ابن حمادوش بنفسه الحرب

---

[1] ينظر ابن حمادوش (عبد الرّزاق): رحلة ابن حمادوش، تحقيق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983، ص09. وينظر أيضا سعد الله (أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثاني، ص438.

[2] ينظر كواتي(مسعود): أعلام مدينة الجزائر ومتيجة، دار الحضارة، الجزائر، ط1، 2007، ص14.

الأهلية بالمغرب الأقصى، حتّى كاد يذهب ضحيّة لها ولا شك في أنّه شهد أيضا بعض الحروب التي جرت بين حكام الجزائر وحكام تونس .[1]

وتجدر الإشارة إلى أنّ ثقافة ابن حمادوش هي ثقافة معاصريه ولكنّه تفرّد عنهم بالتّخصص في الجانب العلمي فبينما درس مثلهم العلوم الشرعية واللّغوية وأخذ العلم مثلهم قراءة وإجازة نجد ابن حمادوش يميل بطبعه إلى ما يسمى اليوم بالعلوم الرياضية والطبية وما شاكلها. فهو صيدلي وطبيب وفلكي ومنطقي وقد ألّف في كلّ هذه الأصناف من العلوم وكان مهتّما بالفقه والنحو والتّصوف والأدب والتّاريخ.

ولابن حمادوش مؤلفات كثيرة منها:

مباحث الذّكرى بشرح العقيدة الكبرى، بغية الأديب في علم التكعيب، كشف الرّموز في بيان الأعشاب، الجوهر المكنون في الطب، شرح على منظومة ابن غرنوط، تعليق على ألفاظ الديباجة الواردة في منظومة ابن سينا، تأليف في علم القنبلة، الدرر على المختصر، السانح في متن الحواشي والشارح، هذا فضلا عن رحلته لسان المقال في النبإ عن النّسب والحسب والحال وكتب أخرى.[2]

والمتأمّل في الكتب المذكورة يدرك بأنّ ابن حمادوش قد صنّف في علوم مختلفة ممّا ينبئ بتفوّقه العلمي، وما الكتب المذكورة عنه إلاّ غيض من فيض .

ولمّا كان العنوان جزءا من هذه الرحلة فقد ارتأينا التوقف عنده لمعرفة مدى تطابقه وانجذابه مع النص أو تنافره معه.

---

[1] ينظر شاوش(محمد بن رمضان): إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، المجلّد الثاني، ج3و4، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، ص109.

[2] ينظر سعد الله(أبو القاسم): الطبيب الرّحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته وآثاره، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص 56.

2- قراءة في العتبة :

يندرج العنوان في النص الرحلي ضمن عناوين السرود القديمة، وكل دراسة للمتن الرحلي أو غيره يجب أن تنطلق من العنوان لما له من أولوية على كافة العناصر المكونة الأخرى، وباعتباره "العتبة الأولى التي تحاور المتلقي وتشير إلى جنس المؤلف" [1]، بل إنّه المفتاح الذي يمكّن القارئ من الدخول إلى عالم النص ومن ثمّ فتح مغاليقه لأنّ "الولوج إلى النص لا يمكن أن يتّم دون المرور على العتبة، فأهمية العنوان بالنسبة لنصه كأهمية العتبة بالنسبة للبيت ولهذا قيل:أخبار الدار على باب الدار" [2] . فالعنوان هو الذي يمظهر النص ويعلن نية قصديته، أي ما يريد أن يقوله النص بل إنّه يفتح الأفق أمام القارئ لتصور محتواه العام ومضمونه، وبالتالي فهو يخبر عن النص ويفصح عنه باعتباره جزءا من أجزا ئ ه الأساسية وهو بهذا الاعتبار"بنية نصية وليس لافتة مجردة من الدلالة" [3]، وكما يستجيب النص لعمليات التفكيك وإعادة البناء وصولا إلى استكناه دلالاته يضع العنوان نفسه في أهبة الاستعداد لمثل هذا الجهد القرائي.

ومن هذا المنطلق ارتأينا أن نستوقف عند العنوان الذي وسم به ابن حمادوش رحلته وهو"لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال" فما هي طبيعة هذا العنوان ؟ وهل استطاع ابن حمادوش أن يلملم من خلاله كل القضايا والتفاصيل

---

[1] حليفي(شعيب): الرحلة في الأدب العربي، التجنّس، آليات الكتابة، خطاب المتخيّل، ص171.

[2] ينظر بلعابد(عبد الحق): عتبات جيرار جنيت من النص إلى المناص، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1،2008،ص13.

[3] حداد(علي):العين والعتبة مقاربة لشعرية العنونة عند البردوني، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع:370،شباط، 2002، ص07.

التي تحدّث عنها في متن الرحلة ؟ أو بتعبير آخر هل هناك انسجام وتناسق بين عتبه الرحلة ونصها؟ . هذه بعض التساؤلات التي تتبادر إلى ذهن المتلقي وهو يصطدم بمثل هذا النمط من العنونة التي تخضع لاختيار كاتب النص بل وللنص نفسه .

إنّ القارئ المتصفح لعنوان هذا النص الرحلي يجد أنّه لا يحيل على جنسه، فلو حددنا مثلا هذا النص انطلاقا من لفظة (نبأ) لاستشعر القارئ أنّ هذا النص يتضمن حديثا عن الأخبار والوقائع وبالتالي فهو يبدو أقرب إلى النصوص التاريخية، ولو تأملنا كلمات" الحسب، النسب، الحال" لافترضنا بأنّ هذا النص أقرب إلى السيرة الذاتية والتراجم منها إلى فن الرحلة، أمّا لفظتي لسان ومقال فهما متقاربتان من حيث المعنى ولا يمكنهما أن تحيلا إلى جنس هذا النص لأنّ كل الخطابات تنطوي على أقوال .

ونستطيع من خلال هذه القراءات الافتراضية أن نستشف اللّبس الذي يجده المتلقي في تحديد نوع هذا النص، ومن هنا يتبين لنا أن ابن حمادوش أراد أن يترك عنوان نصه مفتوحا للقارئ يؤوله كيفما شاء ويترك له الفضول لقراءة النص(الرحلة) ومن ثم الحكم عليه إن كانت ينتمي إلى هذا الحقل أو ذاك .

والملاحظ أنّ المؤلف اعتمد في صياغة عنوانه على بعض خصائص وقوانين العناوين التقليدية والتي تتجلى في الطول والمضمونية والتّسجيع، ذلك أنّ حضور المضمون والسجع في العنوان يستدعي ضرورة عنصر الطول، حتّى يكون أكثر وضوحا وإغراء، واستيعابا لاتساع مضمون الرحلة، كما أنّ وجود السجع في العنوان يثير لدى القارئ " قلقا سيميولوجيا"[1] وفضولا يدفعانه إلى الغور في أعماق النص، بحيث يستشعر المتلقي ذلك التناغم الصوتي الذي نشأ عن المزاوجة بين السجع

[1] ينظر بيزا كامبروبي(جوزيب):وظائف العنوان، ترجمة عبد الحميد بورايو، وقائع سيميائية جديدة، المطبوعات الجامعية ليموج فرنسا، العدد82 ،2002،ص15.

(لسان المقال.....والحال) والجناس (النسب والحسب) اللذان أضفيا على العنوان سمة الجمالية .

وتجدر الإشارة إلى أنّ الباحث أبو القاسم سعد الله قدم تعليقا على عنوان الرحلة في قوله: "فإذا كانت عبارة (لسان المقال) واضحة المعنى فإن عبارة (في الحسب والنسب والحال) لا تدل على الموضوعات التي عالجتها الرحلة في الجزء الثاني إذ ليس فيها إلاّ أخباره الشخصية وأخبار بلاده وأحوال المغرب وقراءاته من الكتب القديمة"[1] ونحن نتفق معه في هذا الرأي لكن هذا لا يعني أنّ الجزء الثاني ليس فيه حديث عن النسب والحسب فقد عثرنا على عبارات في الرحلة تؤكد اهتمام صاحبها بالأحساب والأنساب منها قوله مثلاً:" إنّ هذا اجتمعت فيه ثلاث خلال كل واحدة منها لو انفردت لأوجبت عليك أن لا تتعرض له في شيء، الأولى النسب، رجل شريف من آل بيت النبوة، الثانية أنّه رجل عالم، الثالثة قلّة ذات اليد..."[2] .

وممّا سبق نصل إلى نتيجة مفادها أنّ العنوان الذي وضعه ابن حمادوش لهذه الرحلة لم يستطع أن يفصح عن كلّ محتوياتها بل أشار إلى جزءٍ منها فقط ولعلّ مرد ذلك راجع إلى مضمونها المتنوّع وموضوعاتها المتشعبة ممّا جعل مهمة القبض على عنوان شامل لها أمرا مستعصيا بل مستحيلاً.

---

[1] سعد الله (أبو القاسم): الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري حياته وآثاره، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص57.

[2] ابن حمادوش(عبد الرزاق): رحلة ابن حمادوش، تحقيق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر،1983، ص112.

3- البناء الفني للرحلة :

ينبني كلّ نص على مجموعة من الخصائص والبنيات التي تشكّل معماريته، وهي تختلف من نص لآخر تبعا لاختلاف طبيعة النص وكذا رؤية صاحبه "والبناء العام للنص يشكّل بلا شك أحد العناصر الأساسية التي تكوّن النصوص الأدبية السردية بما تحمله من أبعاد دلالية ورمزية يعتني المبدع في نسجها وهيكلتها أيما اعتناء "[1] .

ولهذا ركّز البنيويون في جلّ أبحاثهم على الجانب البنائي قصد معرفة الوظائف الداخلية التي تمارسها عناصر البنية والتي بحركتها ينبني النص وبهذا اكتسى الجانب البنائي أهمية كبرى ولعلّ هذا ما حدا بالباحث مصطفى البشير قط إلى القول:"ليس نوع الخطاب هو الذي يحقّق اللّذة الفنية، وإنّما الخطاب في حدّ ذاته بمقوماته الفنية وبنائه الداخلي بغضّ النظر عن نوعه وشكله "[2] وتأكيدا على أهمية البناء الفني في النص ارتأينا أن نشير إلى موقف الباحث (سلمان علوان العبيدي) الذي يرى أنّ " البناء الفني في العمل الأدبي يشكّل أساسا تشكيليا وجماليا من أسس العمل، فلا عمل فني بلا بناء فني، وكلّ عمل فني له خصوصية بنائية معينة ومجدّدة تتلاءم وطبيعة هذا العمل، بحيث إنّ مفهوم البناء على هذا المستوى يعدّ حجر الأساس في هيكلة العمل الفني." [3]

ونستشف من هذا الكلام نتيجة مفادها أنّ دراسة البنية الفنية في أيّ نص من النصوص شرط لابد منه لاكتشاف خباياه ومعانيه .

---

[1] عرب الشعبة (نجاة): خصائص البناء النصي في كليلة ودمنة، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق،ع396، نيسان، 2004،ص04.

[2] القط (مصطفى البشير): مفهوم النثر الفني وأجناسه، في النقد العربي القديم، دار اليازوري، الأردن، 2009، ص42.

[3] العبيدي(سلمان علوان):البناء الفني في القصيدة الجديدة،عالم الحديث،الأردن، ط1،2011، ص09.

وممّا تجدر الإشارة إليه إلى أنّنا عثرنا على تقسيم للبنية لدى الباحث (ناصر عبد الرزاق الموافي) الذي يرى أنّه"يمكن تقسيم البنية في أدب الرحلات إلى أنواع وهي البنية النمطية، البنية المحورية، البنية الانتقائية، البنية التضمينية. ويفصل الحديث عن كل نوع من هذه الأنواع فالبنية النمطية هي تلك التي تعتمد نمطا معتادا قريبا من صورة الرحلة الواقعية وهي مكونة في نظره من أربع وحدات وهي المقدمة أو التمهيد، رحلة الذهاب، وصف هدف الرحلة، رحلة العودة، أمّا البنية المحورية فهي تستند إلى تحديد محاور بعينها يهتم بها الرحالة أين ومتى رحل، وقد تبنى على أساس رحلة واحدة أو رحلات متعددة متفرقة، وهذه المحاور يحددها شخص الرحال وتخصصه العلمي، وتركّز البنية الانتقائية على انتقاء الرحال لأبرز ما في كتبه بناءً على هدف محدد أو انتقاء موضوع بعينه أو ظاهرة والتتبّع المستمر في كل مكان لهما أو انتقاء من رحلات الآخرين، أمّا البنية التضمينية فهي التي ترتبط بأنواع أدبية أخرى "[1].

ولو تأملنا في نص رحلة ابن حمادوش وحاولنا أن نصنّفها وفقا لهذا التقسيم لوجدناها تقترب من البنية النمطية تارة ومن البنية الانتقائية تارة أخرى فالقارئ للرحلة يستشعر وكأن كاتبها انتقى كثيرا من النصوص من كتب سابقيه خاصة إذا ما تعلّق الأمر بالنقول التي أوردها في رحلته من كتب التاريخ ككتاب الكردبوسي والمالطي وغيرها، وقد يتساءل المتلقي عن سبب اقتراب نص رحلة ابن حمادوش من البنية النمطية رغم عدم احتوائها على مقدمة وخاتمة فنقول له بأنّ عدم احتواء الرحلة عليهما لا يعني بالضرورة أنّ صاحب الرحلة لم يكتبهما ولكن الجزء الموجود من الرحلة فقط هو الذي لا يحتوي عليهما فقد تكون المقدمة مضمنة في الجزء الأوّل كما قد تكون الخاتمة في الجزء الثالث .

[1] ينظر الموافي (ناصر عبد الرزاق): الرحلة في الأدب العربي حتّى نهاية القرن الرابع الهجري، ص71.

وبما أنّ النص الرحلي "ينهض على عناصر تشيّد معماره الفني وتصقل خطابه من آثار الشفوي وبصمات التجربة ومسافة إدراكها وإدراك التقاطعات المتنوعة التي أكسبت النص تلوينات شتّى تحولت وانتقلت ساخنة إلى دفء المكتوب وسط أشكال غنية – على حد تعبير شعيب حليفي– " [1] فقد ركّزنا جلّ اهتمامنا في هذا الفصل على البناء الفني للرحلة ولمّا كانت اللّغة أداة من أدوات التعبير بوصفها أحد أهم عناصر البناء الفني فقد ارتأينا دراستها في علاقتها مع الأسلوب على اعتبار أنّ اللّغة لا تنفصل عن الأسلوب ثمّ يأتي بعد ذلك المنهج ليبين طريقة تدوين الرحلة .

هذه إذن بعض القضايا التي ارتأينا أن نوضحها للمتلقي في هذا الجزء من البحث فما هي خصائص البناء الفني لرحلة ابن حمادوش؟ وما طبيعة اللغة والأسلوب اللّذين كتبت بهما الرحلة؟ وما المنهج الذي اتبعه في عرض مضمونها؟

أ -اللّغـــــة والأسلـــوب :

تعتبر اللّغة من أبرز الآليات التي يستخدمها الرحالة في ترجمة أفكاره ومقاصده التي يروم إليها، بل إنّها الجسر الذي ينقل عبره كل ما تصوّره عدسته من مشاهد رآها أو سمع بها للمشاهد أو المتلقي فيدعوه إلى مشاركته واستحضار تلك الصور كما لو أنّها ماثلة أمامه، خاصة وأنّ ابن حمادوش في رحلته قد بدا دقيق الملاحظة حريصا على تتتبع جزئيات الأمور وتفاصيلها لأنّ "الهدف من تدوين الرحلات هو الوصول إلى حقيقة الإنسان، ووضعه في الكون، ونجاح الكاتب مرهون بتوضيح هذا الجانب كما يراه"[2] ومعنى ذلك أنّه متى استطاع كاتب الرحلة أن يتحرّى الصدق في عرض مشاهداته ، فإنّ ذلك يجعلها أكثر واقعية وهو ما ينطبق على رحلة ابن حمادوش.

ولهذا يرى الباحث ناصر عبد الرزاق الموافي أنّ"البناء المنطقي خير وسيلة لتحقيق الهدف، وهذا البناء يبدأ من الوحدات الصغيرة المتمثلة في الكلمة أو اللفظة

---

[1] ينظر حليفي(شعيب): الرحلة في الأدب العربي، ص280.

[2] الموافي(ناصر عبد الرزاق): الرحلة في الأدب العربي حتّى نهاية القرن الرابع الهجري،ص75.

والعبارة أو الفقرة، وينتهي إلى الروح العام كله، يشمله، ويربط بين أجزاءه، ويسد ثغراته"[1] . ومن هذا المنطلق ارتأينا أن نبدأ بالألفاظ ثم نتدرج بعد ذلك إلى العبارات فالأساليب وغيرها.

إنّ المتأمل في رحلة ابن حمادوش يلفي أنّ الألفاظ جاءت سهلة واضحة بعيدة عن التعقيد والغرابة والتكلف فقد كان الرحالة قليلا ما يفتتح بعض كلامه بفقرات مجودة مزينة بالسجع خاصة في حديثه عن شيوخه ومن ذلك قوله في البناني:"فأوّلهم وأولاهم بالتقديم، وبمزيد الإجلال والإكبار والتعظيم، الشيخ الإمام حسنة الليالي والأيام، نجم الأمة وتاج الأئمة، العارف بالله، والدال على الله، الذي رباني وأحسن بي التربية، وغذّاني بنفائس علومه، ودقائق فهومه وأحسن في التغذية.." [2] ومن ذلك أيضا قوله في آخر:" الثالث شيخنا العديم النظير، ذو الفهم الرايق والحفظ الدافق، والبحث والتحرير، الإمام العلامة النحرير الذكي، الألمعي الزكي، أبو عبد الله سيدي مولاي محمد بن أحمد القسمطيني..." [3] ولكن هذا لا ينفي احتواء الرحلة على بعض الألفاظ العامية مثل :(مكحلة،شكارة، شاشية ...) التي من شأنها أن تضفي واقعية أكثر على الرحلة وتقربها من المتلقي لأنّ همّ ابن حمادوش لم يكن في إظهار مقدرته اللّغوية وملكته الأدبية وإنّما همه أن يقص ما لديه من حكايات ومشاهدات.

وقد جاءت عبارات هذا النص الرحلي سهلة تخلو من الغرابة والوعورة والتعقيد، فبينما كان الكاتب يهتم في تقديمه لشيوخه بالسجع في بعض الأحيان فإنّه يكتفي في مواضع أخرى بتسجيل مشاهداته وملاحظاته بأسلوب سهل ودقيق حتى إذا خرج عن ذلك أتى بعبارات عامة خالية من التكلف كقوله مثلا:"وخرجت من فاس، واكتريت بهيمتين من البغال بسلطاني ذهبا لكل واحدة فظللنا سائرين إلى آخر النهار" [4] ومن

---

[1] ينظر المرجع السابق،ص75.

[2] ابن حمادوش (عبد الرزاق): الرحلة، ص40.

[3] المصدر نفسه، ص43.

[4] المصدر نفسه، ص98.

الأمثلة التي تؤكد بساطة الرحالة في تعابيره وصفه لمرض أحد المرافقين له في السفينة في قوله: "فبقي كذلك والمرض يزداد حتى ظهرت في فخذه حبة وحمرة في ساقيه فتعين أنّه وباء ...وحضر جنازته خلق كثير تقرب من ألفي رجل وخمسين امرأة "[1] .

ويصف الباحث أبو القاسم سعد الله أسلوب ابن حمادوش في الرحلة بقوله:"وأسلوب الرحلة يمتاز بالسلاسة والتّتابع ولا تثقله إلاّ عبارة الانتقال من فكرة إلى فكرة أو من فاصل زمني إلى آخر وهي وفي يوم كذا جرى كذا، أو ثمّ دخل عام كذا وأوله هو يوم كذا...الخ" [2].

والقارئ لنص الرحلة يلفي أنّ صاحبها لم يول عناية كبيرة للمحسنات البديعية والصور البيانية ولا غرابة في ذلك لأنّ حرص ابن حمادوش على إظهار الحقائق كما رآها أو سمع بها أغناه عن الاهتمام بالزينة اللّفظية التي تحجبها عن المتلقي فقد حاول الوصول إلى هدفه من أقصر الطرق، وما ورد من المحسنات البديعية فهو قليل جدا كتوظيفه للجناس في قوله:" إنّهم أنسوا الفتنة والهرج، ونحن قريب من المرج"[3] ،ومن الصور البيانية التي وردت في الرحلة الكناية في قوله:"فلمّا استقر الدواء في بطني أمسكت الأعضاء كلّها عن الاختلاج" [4] وهي كناية عن تماثل ابن حمادوش للشفاء بعد الحمى التي أصابته، وفي قوله أيضا في أحدهم :" دخلت عليه بقصيدة وسلمت وقبلت يده فأومأ لي بالجلوس ، فجلست نصف جلسة" [5]وهي كناية عن قلقه وعدم ارتياحه من هذا الشخص.

---

[1] ابن حمادوش(عبد الرزاق):الرحلة، ص86.

[2] سعد الله (أبو القاسم):الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته وآثاره، ص59.

[3] ابن حمادوش(عبد الرزاق): الرحلة، ص75.

[4] المصدر نفسه، ص84.

[5] المصدر نفسه، ص81.

ويبدو أنّ ابن حمادوش قد حاول التخلّص من سيطرة المحسنات البديعية والصور البيانية عليه لإيمانه بأنّ "التكلّف فيها ومعاناتها يصير الغفلة عن التراكيب الأصلية للكلام، فلا يبقى فيه إلاّ تلك التحسينات"[1] .

أمّا إذا تأملنا الجمل التي كتب بها هذا النص الرحلي وجدناها سهلة مألوفة ودقيقة طريفة ركزت على الأفعال لاتّفاقها وطبيعة الرحلة ولسماحتها بالحركة المتتالية للصور ذات الانتقال السريع ، لذا امتاز الأسلوب بالتلقائية، والاسترسال، ووضوح المعاني، فقد كان للأفعال دور كبير في بيان دلالات الرحلة.

ولهذا يمكن القول إنّ من أهم الخصائص البنيوية والسمات التي تلوح للقارئ الناقد في تعامله المتكرر مع هذا النص الرحلي هو شيوع الاتكاء إلى سند الجملة الفعلية وهي ظاهرة كثيرا ما يعتمدها الرحالة، فقد مال كما يلاحظ في رحلته إلى الاستعاضة عن الصفات أو ما يقرب منها من الأسماء بصيغ بديلة وهي الأفعال والصيغ المشتقة منها.

وقد نوّع الرحالة في استخدامه للضمائر المتصلة بتلك الأفعال حيث وردت أفعال أسندها الرحالة إلى ضمير الجمع (كنا، خرجنا، زرنا، بتنا، نزلنا، مكثنا، سرنا...) وأخرى إلى ضمير المتكلم ومنها (سمعت، دفعت، لقيت، نزلت...) الأمر الذي أكسب الأفعال حيوية وحركة تنسجم مع فعل الرحلة .

ويبدو أنّ ارتفاع تواتر الجمل الفعلية في هذا النص الرحلي ظاهرة ينبغي الوقوف عندها والتنقيب فيها للكشف عن الأسباب التي دفعت ابن حمادوش إلى استعمالها بهذا الشكل، والبحث عن العلل التي يرتد إليها وجودها، وهي فيما أحسب تعود إلى ذلك التدفق الهائل من الحركة الذي يعم عالم الخلق الأدبي في هذا النص، إنّها حركة متوالدة متدافعة، متشابكة خيوطها مختلفة المناحي والوجهة، حركة يفرضها النص نفسه ولعل هذا ما حدا بالباحث نواري سعودي أبو زيد في كتابة جدلية الحركة والسكون إلى القول :" تبدو عبقرية المبدع في استخدام صيغ الأفعال

[1] ابن خلدون(عبد الرحمن):المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1،2000، ص131.

جلية للدلالة على معان مخصوصة في أزمنة معلومة محددة مرادة، ولعلّ أبرز ما يلوح للدارس في هذا المقام هو إيحاء الأفعال بمعاني التحول والانقلاب..." [1] وهو الأمر الذي يتفق مع رحلة ابن حمادوش التي تفيض بالحيوية والحركة.

ويلجأ ابن حمادوش في بعض الأحيان إلى استخدام الجمل الاعتراضية الطويلة كما هو الحال في قوله :" ثمّ إنّي جالس معه في مجلس حسن – كان له مجلس من مجالس الملوك، بيت في رياض من نواور شتى ، وعنبر ومياه، والناس يقصدونه هناك للتداوي، ولا يجلس إلى الضحى والعشية، جعل هذين الوقتين لمصالح المسلمين، ففي الصباح ينظر في القوارير الهراقية ويخبرهم بما يصلح بهم والعشية للأسئلة– إذا أنا هناك أخذتني حمى نافض، فقمت ترتعد فرائصي..."[2].

وممّا تميّز به أسلوب الرحالة أيضا كثرة اقتباساته من الشعر والقرآن الكريم والحديث الشريف وكذا الأمثال والحكم ولعلّ مرد ذلك راجع لكثرة محفوظاته وسعة ثقافته، الأمر الذي جعل رحلته غنيّة بالشواهد النصيّة التي تدعم أفكاره وتضفي على أسلوبه طابع الجمالية، وقبل أن نورد نماذج من هذا التوظيف ارتأينا أن نقوم بإحصاء هذه الشواهد لمعرفة نسب توظيفها وتوزّعها في متن الرحلة كما هو موضح في الجدول التالي:

---

[1] نواري سعودي (أبو زيد): جدلية الحركة والسكون، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1،2011، ص65.

[2] ابن حمادوش(عبد الرزاق): الرحلة، ص82.

الشـــــاهد	العـــــدد	النسبـــــة
الشعـــــر	550	% 88,28
القـــرآن	33	% 05,29
الحديـــث	32	% 05,13
الحكـــم	06	% 0,96
الأمثـــال	02	% 0,32
المجمـــــــوع	623	% 100

نستشف من خلال إحصائنا لعدد الشواهد الموظفة في الرحلة أنّ الشعر يأتي في المرتبة الأولى، إذ يبلغ عدد الأبيات الموظفة في الرحلة 550 بيتا، أي ما يعادل 88,28% من مجموع الشواهد الموظفة في الرحلة، ولا غرابة في أن يمتح الرحالة منه كلّ هذا القدر فهو ديوان العرب ومنتهى بلاغتهم كما أنّه يضفي على الرحلة رونقا يدفع عن قارئها الملل، وسنورد بعضا من هذه الأشعار في حديثنا عن موضوعات الرحلة .

ويأتي القرآن الكريم في المرتبة الثانية من حيث التوظيف في الرحلة فقد أكثر الرحالة من الاستشهاد بالآيات القرآنية خاصة إذا ما تعلّق الأمر بحديثه عن الخطب وعقود الزواج وبعض المسائل الدينية، ويبدو أنّ تأثر الرحالة بالقرآن إنّما مرده إلى إيمانه بأنّ " استعمال آيات من القرآن الكريم يعدّ ضربا من ضروب بلاغة الخطاب النثري التي تظلّ ناقصة من دونه"[1] .

ومن هنا يبدو أنّ الأثر الديني كان واضحا في أسلوب الرحالة فقد كان للقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة أساس ثقافته ومصدر بلاغته فكثر الأخذ منهما ولا مشاحة في ذلك لأنّ جلّ المصادر التي عثرنا عليها تؤكد بأن حمادوش كان حفاظة

[1] قط (مصطفى البشير): مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم، ص34.

للقرآن الكريم منذ صغره، ولهذا كثر الاقتباس منه في اللّفظ والنص والمعنى فغدت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة أسلوبا من الأساليب والأدوات الفنية لرحلته.

ومن الآيات القرآنية التي وظفها في الرحلة قوله تعالى:﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾[1] وقوله جلّ وعلا:" ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [2] ومن الأمثلة أيضا قوله تعالى : ﴿فَٱنكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [3] ويبدو أنّ تأثر ابن حمادوش بالآيات القرآنية كان يقصد به تأكيد المعاني في عباراته ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[4] .

وقد اشتملت رحلة ابن حمادوش على مجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة منها قوله صلى الله عليه وسلّم:"اللَّهُمَ لاَ عَيْشَ إلاَّ عَيْشُ الآخِرَة فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ والمُهَاجِرَة"[5] ومنها أيضا:" لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابْ" [6] ومن الأحاديث التي وردت في الرحلة أيضا قوله صلى الله عليه وسلم:"مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِي جَارَهُ"[7].

ويبدو أنّ توظيف ابن حمادوش للأحاديث النبوية في رحلته بهذا الشكل قد جاء نتيجة قراءاته المتكررة لكتب الحديث حيث ذكر في رحلته أنّه اطلع على صحيح

---

[1] سورة الطلاق: الآية02، وينظر رحلة ابن حمادوش،ص165.

[2] سورة البقرة : الآية 31، وينظر رحلة ابن حمادوش،ص 66 .

[3] سورة النساء: الآية 03، وينظر رحلة ابن حمادوش،ص238.

[4] سورة يوسف:الآية 31، وينظر رحلة ابن حمادوش،ص 65 .

[5] البخاري(أبوعبد الله محمد بن اسماعيل):صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت،ط2007،2، ص 1580، وينظر رحلة ابن حمادوش، ص165.

[6] مسلم(أبو الحسين بن الحجاج):صحيح مسلم، دار الكتب العلمية،بيروت، المجلد 1971،10، ص284، وينظر رحلة ابن حمادوش، ص157.

[7] البخاري(أبوعبد الله محمد بن اسماعيل):صحيح البخاري، ص 1500، وينظر الرحلة، ص123.

البخاري وكان في كل مرة يذكرنا بأنّه قرأ يوم السبت مثلا باب الصلاة ويوم كذا باب الصيام بشيء من التفصيل يجعلنا نتصور وكأنّ الكتاب بين أيدينا .

وتجدر الإشارة إلى أنّ ابن حمادوش قد وظّف في رحلته أيضاً بعضا من الأمثال والحكم للتأكيد على صحة المعاني التي يدعو إليها كقوله: "جَازَاهُ مَجَازَاةَ التِّمْسَاحْ أو جَزَاءُ سِنِمَارْ" [1]، "كَحَاطبِ ليلٍ" [2] ومن الحكم التي وردت في الرحلة "مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ"[3]، ومنها أيضا:

لاَ تَحْفَرَنَ بِئْرا تُرِيــدُ أَخـاً بِهَا فَإِنَّكَ فِيــهَا أَنْتَ مِنْ دُونِـــــهِ تَقَـعْ

كَذَاكَ الذِي يَبْغِي عَلَى النَّاسِ ظَالِماً يُصِبْهُ بِرُغْم العَوَاقِبِ مَا صَنَعْ[4]

وقد رأينا أنّه من الموضوعية أن نشير إلى بعض الأخطاء التي وردت في الرحلة كما هو الحال في قوله:" عجبت لمن رءا الدنيا وتقلبها بأهلها" [5] وأيضا في قوله:" ولم يفتني منه إلاّ القليل" [6].ولكننا لسنا متأكدين من نسبة هذه الأخطاء للمؤلف لأنّنا نرى بأنّ وجود مثل هذه الأخطاء في الرحلة مسؤولية يتقاسمها ثلاثة وهم الرحالة والناسخ والمحقق وإن كانت مسؤولية الأخير كبيرة لأنّنا وجدناه يشير إلى بعض هذه الأخطاء ويتغافل عن بعضها الآخر، ولمّا كانت الرحلة مسودة فإنّها لم تسلم من التكرار أحيانا ونجد ذلك في وصفه لحالة الثائر أحمد الريفي التي ذكرها ثمّ كررها بعد ذلك تحت عنوان :"العودة إلى ثورة الريفي" [1] ويمكن أن نرجع استخدام ابن

---

[1] الميداني(أبو الفضل): مجمع الأمثال، ج1، دار الجيل، بيروت،1996،ص110،وينظر رحلة ابن حمادوش، ص104.

[2] المصدر نفسه، ص224، وينظر رحلة ابن حمادوش ص 104.

[3] ابن حمادوش(عبد الرزاق): الرحلة، ص104.

[4] المصدر نفسه، ص 43.

[5] المصدر نفسه، ص52.

[6] المصدر نفسه، ص70.

[1] ابن حمادوش(عبد الرزاق): الرحلة، ص91.

حمادوش لأسلوب التكرار إلى أنّه كان ينقل من مذكراته وربما قد يرجع إلى رغبة منه في تأكيد مثل هذه الوقائع والأحداث.

ومهما يكن فقد استطاعت رحلة ابن حمادوش أن تعرفنا على صاحبها وعلى ذوقه واختياراته وعلى اللّغة التي كانت سائدة في عصره كما أنّها استطاعت أن تنقل للمتلقي الأحداث والمشاهدات بكل صدق وموضوعية.

ب- المنهـــــــــج:

لقد اختلف الرحالون في تحديد أهدافهم من الرحلة فمنهم من كان هدفه علميا ومنهم من كان هدفه دينيا ومنهم من كان ترفيهيا، واختلفت بذلك مناهج تدوينهم لرحلاتهم ومن أهم هذه المناهج التدوين الزمني، التدوين المكاني، التدوين الموضوعي، التدوين الانتقائي، والتدوين الاستدعائي.

ولمّا كان "التدوين الزمني من أهم المناهج استخداما، وأكثرها تنوعا، وأضبطها وأوثقها"[2] فقد آثر ابن حمادوش هذا المنهج في كتابة رحلته وهو ما يمكن أن نستشّفه من قراءتنا للرحلة ولعلّ أهم ما يلاحظ في هذا النص الرحلي هو عناية ابن حمادوش الكبيرة بعنصر الزمن فهو لا يكتفي بتقسيم رحلته وفقا للسنوات والشهور والأيام بل أنّه يذكر حتّى الساعات في بعض الأحيان الأمر الذي يؤكّد دقة ابن حمادوش وواقعية الأحداث التي رواها فيها ومن النماذج التي تؤكد اهتمام الرحالة بالزمن بكل تفاصيله قوله:" الجزء الثاني من رحلة لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال مبدؤه من أول ليلة الاثنين فاتح عام 1156 عربية الموافق رابع عشر فبراير ثاني شهور سنة 1743 مسيحية، وخامس شهور سنة، 1743 مسيحية"[3].

---

[2] الموافي(ناصر عبد الرزاق): الرحلة في الأدب العربي خلال القرن الرابع الهجري، ص 63.

[3] ابن حمادوش(عبد الرزاق): الرحلة، ص 29.

ولو تأملنا رحلة ابن حمادوش لأدركنا مراعاة صاحبها الترتيب في سرد الأحداث فيقول مثلا :"وفي يوم الأربعاء أذن لي الشيخ البناني والوَرْزَزِي بأن أدرس المقنع... وفي يوم الخميس لقيت الشيخ الورززي.." [1]، وهكذا يواصل ابن حمادوش عرض أحداث رحلته حيث ينقل المتلقي إلى عالمه يوما بيوم معتمدا على معاينته للوقائع أو سماعه للأخبار والأحداث، ممّا يشعر المتلقي بصدق الرواية.

والواقع أنّ رحلة ابن حمادوش لا تحتوي على منهج محدد – وإن كان الترتيب الزمني هو الغالب عليها– إذ نجده يزاوج فيها بين أكثر من منهج أي بين التدوين الزمني والتدوين الانتقائي الذي نلمسه من خلال إيراد ابن حمادوش لبعض القصص والحكايات والنصوص التي انتقاها من قراءاته لكتب الآخرين ككتاب الكردبوسي والمالطي وصحيح البخاري... وغيرها، هذا فضلا عن اعتماده في أكثر من موضع في الرحلة على الاستطراد الذي يثقل الرحلة ويؤثِّر على منهجها وأسلوبها في آنٍ واحد، ولكنه يترك للقارئ مساحة للترويح عن نفسه، ولعلّ هذا ما كان يقصده ابن حمادوش من استخدامه لتقنية الاستطراد في سوق أخبار رحلته، فما إن يذكر موضوعا من الموضوعات حتى تراه يندفع وراءه يشبعه بحثا وملاحقة حتّى أعمق جذوره وأدّق متعلقاته، وهذا بلا شك بعض نتائج ثقافة رحالتنا الرّحبة ومعارفه الواسعة، ولذلك فهو يحرص دائما على إمداد القارئ بأكبر قدر من المعارف، ويكفيه في هذا المجال إشارة بسيطة حتّى يزل قلمه، ولا يكتفي إلاّ بورود منابع موضوعه، فلا يذكر ملوك آل عثمان مثلا حتّى تراه يفصّل الحديث عن تاريخ ولايتهم حسب تسلسلهم الكرونولوجي، وكذا في حديثه عن ولاة الجزائر.

ويرى الباحث أبو القاسم سعد الله "أنّ المحتوى العام للرحلة يمكن أن يقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، الأول قسم المغرب وهو في حوالي 75 صفحة، والثاني قسم نشاطه الشخصي في الجزائر وغيرها من قراءات وتدريس وعمل واتصالات وتأليف، أمّا القسم الثالث فهو يتناول النصوص والوثائق التي أوردها مثل قائمة ولاة الجزائر من أول دخول العثمانيين إلى زمنه وسلاطين آل عثمان إلى زمنه أيضا، ومثل نقوله

[1] المصدر السابق، ص 35.

الكثيرة من كتب ووثائق المتقدمين والمعاصرين مثل الاكتفاء لابن الكردبوس، وكتاب تاريخ الدول للمالطي، وأنس الجليل للعليمي، بالإضافة إلى مجموعة من عقود الزواج على عادة أهل مدينة الجزائر، وكذلك مجموعة من الأسانيد والإجازات والقصص"[1].

ويبدو أنّ هذا التقسيم هو الذي جعل أبو القاسم سعد الله يحكم على ابن حمادوش بأنّه:" يكتب مسودة رحلة، وأنّ محتواها غير منسجم وغير متماسك، ذلك أنّه لا يكاد يربط بين أجزائها سوى الترتيب الزمني، وأنّه قد اتّبع في رحلته طريقة السنوات، أي أنّه كان يسجل ما رأى وما عاش وما وقع من أحداث خلال سنة ثم ينتقل إلى السنة الموالية وهكذا، وإذا أخذنا بالنّص الموجود عندنا فالرحلة لا تتجاوز خمس أو ست سنوات من عمر المؤلف، وهي لا ريب لا تعدّ شيئا بالنسبة لعمره الطويل الذي تجاوز بحسب بعض الآراء، تسعين سنة ..." [2] ونحن نتّفق معه في هذا الرأي لأنّ رحلة ابن حمادوش تفتقر إلى الوحدة العضوية ولعلّ مرد ذلك غنى الرحلة وتشعّب موضوعاتها، وعلى هذا يمكن أن نصل إلى نتيجة مفادها أنّ المنهج الذي سار عليه ابن حمادوش غير واضح وغير محدد، ولكن هذا لا ينفي القيمة العلمية والمعرفية التي تحتوي عليها.

ج – الوصـــــف :

احتّل الوصف مكانة كبيرة في رحلة ابن حمادوش، التي كانت تمثّل خطا طويلا منه، فهو يحمل أبعادا جمالية، بما يقدمه من رسم لملامح الشخصيات كما هو الحال في وصفه لأحد شيوخه " مجلسه كثير الفوائد، عظيم الفرائد مليح الحكايات، وكان له قوة عارضة ومزيد ذكاء مع نزاهة وديانة وحفظ مروءة وضبط حال..." [3] أو إضاءات عن المواقع والأحداث، حيث حاول الرّحالة رصد كلّ ما شاهده وسمعه، وسجلّ كل ما وقعت عليه عينه من مشاهد شتّى تتعلّق ببلده الجزائر وبالبلد الذي زاره أي المغرب فذكر مجموعة من الوديان والأماكن وكل ما يتعاطاه النّاس من مختلف

---

[1] ينظر سعد الله(أبو القاسم): أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص230.

[2] المرجع نفسه، ص231.

[3] ابن حمادوش(عبد الرزاق) : الرحلة،ص 44.

الأنشطة والمناسبات والأعياد والعادات والتقاليد ونقل كل ذلك بدقة وصدق متناهيين إلى كلّ من حالت دون رحيلهم الأسباب والعوائق .

وقد استطاعت هذه الأوصاف أن تعبّر عن انطباعات الرحالة، وترسم صورة لشخصيته، فهو ينقل الأحداث والأخبار، ويصفها بحيث تصل إلى عالم المحسوسات المدركة بالمشاهدة والسماع، بحيث يضفي ابن حمادوش على رحلته من مشاعره وعواطفه، ويجعلها تنبض بالحياة والحركة، فقدّمت رحلته بذلك المتعة والتشويق للقارئ، وكشفت عن مكامن الجمال الطبيعي لمختلف المخلوقات الغريبة التي شاهدها الرحالة أثناء تنقلاته ومن ذلك وصفه لإحدى الغرائب التي أثارت انتباهه وهو في طريقه بين تطوان ومكناس حيث يقول:" ومن غريب ما رأيت أنّي رأيت غِرَّتَيْنِ كل واحدة في أفحصها فوق الماء تحضن بيضها، فلما بلغت المبيت شهد أهل الحي كلّهم، كبيرهم وصغيرهم، أنّ الغرّ وبُوغَطَاسْ وطيور أخر لا يلدون إلاّ فوق الماء في الموضع الذي يكون عليه كقطعة حصير من الكلأ ثمّ يبنون بها أفحوصهم، ويبيضون ويفرخون ولا يمسّ بيضهم الماء وإذا مسه الماء فسد، فإنّها تُبْنَى بناء صحيحا جدا وأَتَوْنَا ببيض الغرّ، عظمه كبيض الدجاج ولونه كلون بيض الحجل إلاّ أنّه أشدّ بياضا من بيض الحجل، وفيه نقط سود، والغر طائر قدر الدجاج أسود اللون وبين عينيه غرة بيضاء".[1]

والملاحظ أنّ وصف الرحالة في هذا المقطع كان دقيقا جدا وقد بدا فيه مهتما بذكر كل التفاصيل عن هذا الطائر الذي تحدّث عنه .

ومن البقاع والأماكن التي أحسن ابن حمادوش توصيفها بكلّ موضوعية وواقعية ما جاء في حديثه عن أحد المواقع التي قال فيها:" ومنه تعدينا على بلاد يقال لها القصر، فليس يسكنها حر، مهدّمة البناء، نائيّة الماء، ومع أنّها كبيرة المنشأ، قليلة الممشى، عددت بها ثلاث عشرة صومعة سوداءات ..."[1].

---

[1] ابن حمادوش(عبد الرزاق): الرحلة، ص 73.

[1] المصدر السابق، ص 72.

وصفوة القول تتجلى في أنّ ابن حمادوش لم يقتصر في وصفه على الأشخاص والحيوانات بل وصف الأمكنة والأوضاع الاجتماعية والجمادات وكلّ ما استطاعت أن تلتقطه عدسته من مشاهد منذ بداية رحلته إلى نهايتها.

أمّا الشخوص في الرحلة فتقول يمنى العيد:"إنّ الذات... بانتمائها إلى مجتمع وتاريخ، ذات متباينة بل متناقضة، ومتصارعة ولو في صِحَّتِهَا وعَيِّهَا والصّراع في الرحلة رواية للسّيرة، هو بين الذّات وذاتها، وداخل الـ(نحن) من جهة ومع آخر يتواطأ مع هذه الـ(نحن) وضدّها من جهة ثانية، فالذّات في بعض الرحلات صورة محورية، حيث صوّرت الرحلة، سيرة أصحابها، والواقع المعيش، والواقع المستمد من معايشة الآخرين، وهذا ما جعل الرحلات أقرب من الشكل الفنّي منها إلى التسجيل الجغرافي"[2].

والقارئ لرحلة ابن حمادوش يلاحظ توفرها على شخصيات متناهية ومتعددة الأحوال والمستويات الاجتماعية والفكرية والثقافية والصفات والطبقات منهم العلماء والشعراء والأدباء والتجار وأصحاب الحرف.

ولعلّ الشخصية التي اعتمدها الرحالة في المقام الأول هي شخصية الرحالة وهي شخصية محورية كفلت الترابط بين أجزاء العمل الواحد بحيث دارت الأحداث جميعها في فلكه، ولم تشذّ عنه، فحضوره حضور دائم وفاعل، حيث يكفل الوحدة الموضوعية للعمل ويضفي عليه السمة الفنية .

والملاحظ أنّ مادة هذه الرحلة قد تكوّنت وجمعت عن طريق التجربة الشخصية للرّحالة، وعن طريق محادثاته مع شخصيات واقعية كان لها وجود زماني ومكاني وأبعاد تاريخية وجغرافية، تعرّف عليها من خلال رحلته تحمل أسماءً وألقابا عرفت بها أثناء الحياة الدنيا، ولهذا احتوت رحلة ابن حمادوش على كثير من الشخصيات العلمية ذات القيمة الأدبية أو الفقهية كالشيخ البناني، محمد الفاسي، الورززي، الحسن اليوسي..الخ، غير أنّ خطاب هذه الرحلة جاء متمحوراً حول بطل الرحلة أو الرحالة وتجربته الذاتية ومعرفته الموضوعية التي تؤكد بأنّ شخصيات الرحلة عاشت

---

[2] العيد(يمنى): السيرة الذاتية الروائية، مجلة فصول، المجلد 15،ع 04، ص20.

في عصرها وفي حضارة ذلك العصر، وأثّرت في الأحداث وهي بذلك تعكس جزءاً من الحقيقة، فلم تكن مجرّد وسائط لنقل الأحداث، وإنّما كانت تنبض بالحياة إلى حدّ ما، ذلك أنّ حضور الرحالة حضور دائم، وبه يتحقّق وجود المحاورة التي تكسب الرحلة خاصية الإمتاع والحيوية وتشدّ انتباه قارئها لمتابعة الأحداث.

فكان ابن حمادوش بذلك رحالة وكاتبا وراويا ومؤرّخا سجّل لنا الكثير من الأحداث والوقائع ورغم أنّ رحلته تتسم بالواقعية والصدق إلاّ أنّنا استطعنا أن نكتشف فيه شخصية القاص المبدع.

د- الفضاء الزماني والمكاني للرحلة:

إنّ فعل الرحلة لا ينفصل عن الزمان والمكان فالزّمن "عنصر هام في جسد نصّ الرحلة، وعامل من عوامل ضبطه" [1] ولهذا مثّلت رحلة ابن حمادوش في زمنها كلّ مظاهر الحياة المختلفة، ورصدت جوانب من حياة الناس اليومية في المغرب والجزائر خلال فترة زمنية محددة وهي القرن الثامن عشر ميلادي .

والملاحظ أنّ ابن حمادوش قد بدا في رحلته مهتّما اهتماما ملحوظا بالتّتابع الزمني للأحداث منذ لحظة الخروج، حيث اتّبع طريقة العدّ التصاعدي للوحدات الزمنية متّخذا شكل المذكرات اليومية ليؤرّخ تنقلاته ومشاهداته. ومن النماذج التي تؤكد دقة ابن حمادوش في تحديد عامل الزمن قوله:"صبيحة السبت بعد شروق الشمس خرجنا من جبل طارق" [1] وأيضا في قوله:" دخلت مكناسة عند الزوال من يوم الأحد سادس وعشرين صفر من عام 1156"[2] فهو يذكر التاريخ واليوم والشهر والوقت مماّ يضفي على رحلته واقعية ومصداقية ويقربها أكثر من المتلقي.

---

[1] طعان(صبحي): زمن النص، مجلة المعرفة، ع370، 1994، ص137.

[1] ابن حمادوش (عبد الرزاق): الرحلة، ص 31.

[2] المصدر نفسه، ص 77.

وكما شكّل الزمن فضاء القصة في الرحلة كان المكان إذ لا يمكن الفصل بين الزمان والمكان حيث إنّهما مرتبطان مع بعضهما، ويأخذان أهمية من ارتباطهما بالإنسان بحيث يتحوّل المكان من أوصافه الجغرافية والتاريخية، ليصبح جزءاً من التجربة الذاتية للرحالة.

ولو تأمل القارئ رحلة ابن حمادوش لوجد فيها فضاءات لأمكنة متعددة لعلّ أهمّها:

مكان الانطلاق: ويتجلى في رحلة ابن حمادوش في الجزائر وهذا ما استطعنا أن نستشفه من كلامه في بداية الرحلة حيث يقول:"وهذه الساعة كنا على ظهر البحر قريبا من غرناطة وكان عاشر خروجنا من الجزائر" [3] وبهذا يمكن أن نعتبر الجزائر مكان الانطلاق ومكان الرجوع النهائي وعتبة الانتقال إلى أمكنة أخرى.

المكان الجسر: وسمي كذلك لأنّه يمثّل جسرا للعبور من نقطة الانطلاق إلى نقطة الهدف والملاحظ أنّ ابن حمادوش قد وقف في رحلته على أمكنة عديدة منها المدن والقرى والدشور والأضرحة والوديان والجبال، ومن النصوص التي يتمظهر فيها المكان بشكل جلي في الرحلة قول ابن حمادوش:" يوم السبت ثامن عشر صفر، بتنا بوادي بوصفيحة... ومنه إلى وادي الخروب، لعلي أدرك به المرغوب ، ومنه إلى وادي المخازي، ومنه تعدينا إلى بلاد يقال لها القصر..." [4].

ولمّا كانت رحلة ابن حمادوش إلى المغرب فقد كانت جلّ الأمكنة الواردة في هذا النص الرحلي مغربية ومن المدن التي يتواتر ذكرها كثيرا في الرحلة تطوان ومكناس وفاس .

---

[3] المصدر نفسه، ص30.

[4] المصدر نفسه، ص 71.

ونستشّف من خلال ما سبق أنّ الزمان والمكان يشكلان معا فضاء دائريا منغلقا يمكن اعتباره إطارا خارجيا للرحلة التي تعتبر نصّا سرديا يتحقّق في زمن وينطلق معه من مكان الخروج (الجزائر) لتنغلق الدائرة في المكان ذاته عند الرجوع، حيث يمتّد فعل القصّ وسرد المشاهدات والوقائع الاجتماعية والأحداث السياسية إلى جانب مراحل التكوين التي مرّ بها الرحالة (ولادته، الشيوخ الذين تلقى عنهم ....) منذ بداية الرحلة لتملأ بعد ذلك الأحداث المؤثرات المكانية والزمانية مراحل الرحلة التي قطعها الرحالة.

هـ- الحـــــــوار:

تحفل رحلة ابن حمادوش ببعض المواقف الحوارية التي تؤكد الصبغة الأدبية لها وتضفي عليها حيوية وواقعية تقربها أكثر من المتلقي وتشعره بصدق الرواية ومن أمثلة هذه الحوارات ما ورد على لسان ابن حمادوش في الرحلة حيث ذكر أنّه ناقش الورززي في مسألة أفضلية الملائكة على الرسل في قوله:" حضرت مجلس الشيخ سيدي أحمد الورززي ...فقلت: أتقول بتفضيل الملائكة على الأنبياء ولم تستثن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال لي:أوليس يقول الله تعالى :علمه شديد القوى، وهو جبريل، ولا شك أنّ المعلم أفضل من المتعلم؟ ثمّ لمّا أكثر عليّ، قلت له: إنّي لم أستحضر الجواب..."[1]

ويبدو أنّ ابن حمادوش قد أدرك أهمية تزويد رحلته بعنصر الحوار ووظّفه فيها لكونه "من أهّم العناصر التي يجب أن يزوّد بها الرحال عمله، فهو يتيح الفرصة للشخصيات لتظهر ظهورا حرا، فتعبّر عن نفسها بنفسها، كما أنّ الحوار يؤكد السمة الأدبية لكتب الرحلات"[1] بل إنّنا نجد الباحث ناصر عبد الرزاق الموافي يذهب في تأكيد ضرورة وجود الحوار في الرحلات إلى أبعد من ذلك في قوله:" إنّ الحوار يعدّ عامل إنقاذ وإيقاظ، إنقاذ للعمل من التردي في شرك الذاتية المسرفة أو الاستطراد

---

[1] ابن حمادوش (عبد الرزاق) : الرحلة، ص 65.

[1] الموافي (ناصر عبد الرزاق): الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص79.

فيما لا يفيد، وإيقاظ للقارئ وتنشيط لذهنه لما يتضمّنه الحوار من حيوية وفكر متعارض، أو جدل يستلزم الانتباه"[2] .

4- مضامين الرحلة وموضوعاتها:

تحتوي رحلة ابن حمادوش على موضوعات كثيرة ومتعددة غير مترابطة فيما بينها ولا يمكننا أن نشير إليها جميعا ولكننا سنكتفي بالإشارة إلى بعضها وسنورد بعضها الآخر في الفصل اللاحق، وقد تبيّن لنا بعد قراءة هذه الرحلة أنّ هذه الموضوعات تنقسم إلى شعرية ونثرية.

أ -الشعريـــة:

إنّ القارئ المتأمل في رحلة ابن حمادوش الجزائري يلفي أنّ صاحبها ضمّنها عددا كبيرا من الأشعار له ولغيره من الشعراء في مختلف الأغراض الشعرية، ولا غرابة في ذلك لأنّ " الشعر له وجود ملحوظ في معظم الرحلات حتّى أنّه يعدّ من محكيات الرحلة مثله مثل الأحاديث والأخبار والمشاهدات والقضايا اللغوية وغيرها"[3].

ولهذا عدّت الرحلات عموما ورحلة ابن حمادوش على وجه الخصوص من أهم المصادر التي حفظت لنا الكثير من النصوص الشعرية من الضياع، بل إنّها تضمنّت نصوصا شعرية ربما قد لا نجدها في مصادر أخرى، فلو لم يوظف ابن حمادوش هذه الأشعار في رحلته لما أمكننا التعرّف عليها ولا على أصحابها ولا على الأغراض التي قيلت فيها .

إنّ تضمين الشعر في هذا النص الرحلي احتّل فضاءً ضمن فضاء الرحلة النثرية ليصبح بنية وموضوعا أساسا في النص واستمرارا للسياق النصي وتنويعا له ليصبح الشعر المتضمن جزءا لا يجوز فصله عن الرحلة، ولعلّ توظيف ابن حمادوش لهذه الأشعار مرده إلى كثرة محفوظاته وثقافته الشعرية وقد يقصد من وراء هذا التوظيف إبراز مهاراته وقدرته في النظم والنثر.

---

[2] المرجع نفسه، ص79.

[3] الشوابكة عبد الرحمن (نوال): أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتّى نهاية القرن التاسع الهجري، ص276.

والقارئ المتصفح لمتن الرحلة يجد أنّ معظم صفحاتها تحتوي على أبيات شعرية والتي كان يأتي بها عادة للتدليل على بعض المسائل وأحيانا يوشّح بها مقدمات كلامه وخواتيمه ، ويمكن لنا أن نصنّف هذه الأشعار إلى صنفين :

1- أشعار دوّنها ابن حمادوش بنفسه :

وهي في مختلف الأغراض وهو ما استطعنا أن نستشفه من خلال كلامه في الرحلة حيث يقول:" بنيت ديواني على الغزل والنسيب والمراثي ومدح المصطفى" [1] والواقع أنّ القصائد التي ذكرها في الرحلة تتناول أغراضا أخرى غير تلك التي ذكرها، باستثناء الرثاء فقد جاء فيها أيضا المدح والحنين إلى الأهل والوطن والفخر والشكوى من كساد التجارة ومعاكسة الزمان والاستجازة من علماء المغرب ونحو ذلك، ولا يوجد في القصائد المذكورة في الرحلة غزل ولا نسيب ولا مدائح نبوية. ومعنى هذا أنّ لابن حمادوش أشعارا ضائعة قالها في الأغراض التي ذكرها وجمعها في ديوان ما يزال مفقودا.

وسنذكر فيما يلي عدد القصائد والقطع التي عثرنا عليها في الرحلة والأغراض التي قيلت فيها ومطالعها عند الضرورة :

1- القصيدة الأولى التي سجلها في رحلته قالها في مدينة تطوان ووجّهها إلى الشيخ محمد بن عبد السلام البناني يستجيزه فيها، وهي قصيدة لامية تبلغ اثنتي عشر بيتا مطلعها:

سَمَوْتَ فَلَمْ يَكُنْ بِقُرْبِكَ نَازِلُ فَكُنْتَ فِي أَوَّجِ العِزِّ تُمْطِرُ بِالسُؤْلِ [1]

2- والقصيدة الثانية في ذم أولاد مختار بالمغرب على بخلهم حين مرّ بهم ابن حمادوش وهو في طريقه من تطوان إلى مكناس وقد عبّر فيها عن الخوف الذي ساوره هو ورفاقه، لأن ليلتهم كانت محفوفة بالخطر من أولئك القوم وتبلغ القصيدة تسعة عشر بيتًا مطلعها:

---

[1] ابن حمادوش(عبد الرزاق): الرحلة، ص 117.

[1] ابن حمادوش(عبد الرزاق): الرحلة، ص39.

وَلَيْلَةِ مُخْتَارٍ يَبِيتُ بِهـاَ هَمٌّ مَدَى الدَهْرِ لاَ يُرْجَى يَحُورُ عَنِ الهَمِّ
وآلُ قُرَيْمٍ كُلُّهُمْ مَجْمَعُ الرَّدَى يُسِيئُونَ بِالأَضْيَافِ فِي القَوْلِ والحُكْمِ[2]

3- قصيدة قدّمها وقرأها على الحكيم عبد الوهاب أدراق *طبيب السلطان مولاي إسماعيل وأولاده من بعده وكان ذلك بمدينة فاس ومطلعها:

أَيَا سَيِّدِي عَبْدَ الوَهَابِ تَحِيَّةً وَبُشْرَى لَكُمْ أَهْدَى وَأَنْدَى مِنَ الظِّلِ[3]

وقد جاءه ابن حمادوش يطلب منه علما بعدما ترك أمه وزوجه وأطفاله، كما عبر عن ذلك بقوله:

أَتَيْتُكَ يـَا مَلْجَأَ البَرِيَةِ كُلَّهَـــا تَنُولُنِي عِلْمــاً فَنَبْرَأُ مِنَ الجَهْلِ
وخَلَّفْتُ أُمِي والعِيَالَ وصِبْيـَـةً كَأَنَّهَا أَفْرَاخُ الحَمَامِ لَدَى الوَصْلِ[4]

والقصيدة في عشرة أبيات ويلاحظ عليها الخلل العروضي والضعف الشعري .

4- قصيدة أخرى قدّمها إلى الشخص نفسه، لكن موضوعها هو وصف الحمى النافض التي أصابته عندما كان جالسا في مجلس الحكيم أدراق حيث أصابته الحمى فخرج من المجلس وذهب إلى بيته فتداوى وبعد برئه عاد إلى المجلس، ووصف فيها للحكيم ما أصابه، كما وصف مجلس هذا الحكيم الذي قال إنّه كمجلس الملوك وإن قصره كقصورهم والقصيدة في أحد عشر بيتا وفيها أبيات سخيفة مختلة الوزن ومطلعها:

أَيَا شَيْخَنَا عَبْدَ الوَهَابِ سَعَادَةً لِتَعْلَمَ مَا حَازَ الفُؤَادَ مِنَ الحَدْسِ[1]

5- قصيدة استجاز بها الشيخ أحمد بن المبارك بفاس وهي في ثلاثة عشر بيتا وفيها مدحٌ وتذلّلٌ ووصفٌ متشائمٌ لحالة العلوم في عصره، وهي من الشعر الذي يفتقر إلى المتانة والاستقامة في الوزن ومطلعها:

---

[2] المصدر نفسه، ص72.

*عبد الوهاب أدراق(ت 1159ه) من أبرز أطباء عصره، له عدة تآليف في الطب بعضها أراجيز.

[3] ابن حمادوش(عبد الرزاق): الرحلة، ص81.

[4] المصدر نفسه، ص81.

[1] ابن حمادوش(عبد الرزاق): الرحلة، ص82.

أَيَا شَيْخَنـــا شَيْخَ البَرِيـــةِ كُلَّـهَا أَسَيِّدِي أَحْمَدَ المُبـَارَكُ فِي الدَّهْرِي(كذا)
عَلَوْتَ عَلَى أَعْلاَ ذُرَى المَجْدِ رِفْعَةً فَكُنْتَ فِي أَوَّجِ العِزِّ كَالكَوْكَبِ الـــدُرِّيِّ [2]

6- قصيدة أخرى في رثاء الشخص نفسه الذي توفي قبل أن يكتب له الإجازة وتبلغ ثلاثين بيتا، وقد ذكر ابن حمادوش أنّه أول من رثى الشيخ ابن المبارك، ومطلعها:

أَفَلْتَ يَا شَمْسَ الغَرْبِ فِي حُجُبِ الثَرَى وَأَبْقَيْتَ فَأساً فِي الظَّلاَمِ وفِي الغَمِّ
فَحَيَّرْتَ رَصَادًا وعَطَّلْتَ آلَـــــــــةً ويَتَّمْتَ أَفْرَاخاً تُمَوِّنُهَا بِالعِلْـــــمِ [3]

7- قصيدة في تهنئة السلطان عبد الله بن إسماعيل على هزيمة ومقتل الثائر أحمد الريفي وكان قد استعد للدخول عليه بها، ولكن " لما رأيت غلظ حجابه مسكتها عندي" ويفهم من هذا أن إذن الدخول قد رفض له وتبلغ القصيدة ثلاثة عشر بيتا ومطلعها:

أَمَوْلاَيَ عَبْدَ اللَّهِ بِشْرُكَ الهَنـَا بِكُلِّ الذِّي تَبْغِي مِنَ الفَتْحِ والنَصْرْ [1]

8- قصيدة أخرى في نفس السلطان (عبد الله) أثناء ولايته الأولى(سنة 1145)، أي قبل القصيدة السابقة وقد قال ابن حمادوش بعد أن ذكر معاملة حجاب السلطان له في المرة السابقة أنّ الله قد أغناه عن لقياه دون أن يذكر السبب هذه المرة ومع ذلك أثبت القصيدتين في الرحلة قائلاً " حملني الأدب على قولهما...فخلدتهما في ديوان الأدب"[2] وقال أيضا بهذه المناسبة أنّه لم يجعل علمه وسيلة إلى المجد في الحياة الدنيا، وأنّه لم يمدح سلطانا أبدا قبل ولا بعد هاتين القصيدتين ومطلع القصيدة الثانية(وهي الأولى زمنيا) في عبد الله :

---

[2] المصدر نفسه، ص83.
[3] المصدر نفسه، ص87.
[1] ابن حمادوش (عبد الرزاق): الرحلة، ص 97.
[2] المصدر نفسه، ص116.

قَطَعْتُ بِحَارًا مُوهِلاَتٍ ودُونَهـــــا قِفَارًا(كذا) لاَ تَأْوِيهَا الوُحُوشُ مَعَ الطَيْرِ
وجُبْتُ بِلاَدَ التُرْكِ والعَرَبِ والعَجَمِ عَلَى قَدَمِي طَوْراً وطَوْراً عَلَى الـــحُمُرِ [3]

وهي في خمسة وثلاثين بيتا ولا تبلغ أي درجة من الجودة .

9- قصيدة ذاتية كتبها لما أدركه عيد الأضحى وهو في تطوان بعيد عن أهله ووطنه، وليس له مال وقد تحطّمت السفينة التي كانت ستحمله هو وأصحابه إلى الجزائر، ووصف فيها هطول الأمطار وغربته وكساد سلعته واجتماع الناس يوم العيد وبقاءه وحيدا بائسا، وقد بلغت القصيدة ثلاثين بيتا وهي من أحسن شعره ومع ذلك لم تخل من الأخطاء واختلال الوزن يقول فيها:

لَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ اليَوْمِ أَصْبَرَ صَـابِرٍ وهَـا أَنـَا فِي هَذَا الأَوَانِ ذَلِيـــلُ
أَنُوحُ عَلَى بُعْدِ الدِيَارِ صَبـــابَـةً نَوَاحِي(كذا) الثَكَالىَ تَحْسَبُونِي جَمِيلُ [4]

10- رجز في واحد وعشرين بيتا قاله يوم تحطّمت السفينة التي كان سيسافر عليها من تطوان إلى الجزائر، وطال به السأم وانقطع رجاؤه في العودة إلى أهله، وقد عبّر فيها عن لوعة الحنين إلى أطفاله وزوجه ومطلعها:

أَيَا أُمَ عَبْدٍ صَبِرِي تَصْبُرِي وأَيْقِنِي أَنِّي عَلَى الأَمْرِ جَرِيٌ [1]

وهي أيضا مكسورة ومهلهلة النّسج .

11- قصيدة هجا فيها الشاعر المفتي ابن علي وافتخر عليه فيها بنفسه وشرفه وذكر فيها أنّه بالرّغم من كونه لم ينل حظا في الدنيا فإنه يكفيه مجدا أنّه من آل علي بن أبي طالب وأن أجداده من قبيلة بني هاشم، وهي في أربعة عشر بيتا، وقد ذكر ابن حمادوش المناسبة التي قالها فيها ، حيث أنه كان في منزل شيخه محمد بن ميمون فدخل عليهما المفتى الحنفي ابن علي فلم ينهض له ابن حمادوش للتسليم عليه فغضب ابن علي من ذلك وخرج ومطلعها :

---

[3] المصدر نفسه، ص116.

[4] المصدر نفسه، ص108.

[1] ابن حمادوش (عبد الرزاق): الرحلة، ص 109.

خَرَجْتُ ذَلِيلاً لاَ أَعُودُ لِمِثْلِـــهَا وهَلْ يُجْمَـــعُ السَيْفانِ وَيْحَـكَ فِي غِمْدِ
فَإِنِّي مِنَ اللاَّئِينَ فَوْقَ الثَّرَى تَرَى وأَنْفُسَنَـــا فِي العَرْشِ تَـابِعَـةُ المَجْـدِ [2]

12 – بعض القطع التي حلّى بها مقاماته، على عادة كتاب المقامات في ذلك العصر.

هذه إذن نماذج من أشعار ابن حمادوش وجدناها مبثوثة في رحلته فارتأينا الإشارة إليها لكونها تشكل نموذجا لصاحبها ولشخصيته وأسلوبه .

2- أشعار لغيـــــره:

وهي كثيرة جدا منها قول الحسن بن مسعود اليوسي:

أَلاَ أَيُّهَا النِيـــَام وَيْحَكـُـــمْ هُبُّوا أُسَائِلُكُمْ هَلْ يَقْتُلُ الرَّجُلَ الحُبُّ
صَدَدْتَ والصَدُّ مِنْكَ غَيْرُ مَعْهُودِ وبِالوِصَالِ قَصَرْتَ كُلَّ مَمْدُودِ[3]

ومنها قول أحدهم:

وَأَنْتَ امْرُؤٌ مِنـَّـــا خُلِقْتَ لِغَيْرِنـَـا حَيـــــَاتُكَ لاَ تَنْفَعُ ومَوْتُكَ فـَـاجِعُ
وَأَحْلِفُ إِنْ عِشْتُ الزَّمَانَ ولَمْ أَمُتْ فَلاَ أَنْظُرُ القَبْرَ الذِّي لَكَ جَـــامِعُ[1]

ومنها أيضا قول آخر:

وقَـائِلَةٍ لِمَ عَرَتْكَ الهُمُومُ وأَمْرُكَ مُمْتَثِـلٌ فِي الأُمَمْ
فَقُلْتُ ذَرِينِي عَلَى حَالَتِي فَإِنَّ الهُمُومَ بِقَدْرِ الهِمَمْ[2]

---

[2] المصدر نفسه، ص256.
[3] المصدر نفسه، ص46.
[1] ابن حمادوش(عبد الرزاق): الرحلة، ص268.
[2] المصدر نفسه، ص45.

ب- النثريـــــــــة :

إنّ القارئ المتأمّل لرحلة ابن حمادوش يستشعر كأن صاحبها أراد أن يكسر رتابة الحكي أوالسرد بإدخاله لبعض الفنون في ثنايا رحلته كالمقامات والقصص والأساطير، حتّى يترك للقارئ مسافة للتّرويح عن نفسه فإقحام هذه الفنون في الرحلة وإن كان يجعلها ثقيلة أحيانا إلاّ أنّه كان لها دور إيجابي يتمثّل في إضفاء سمة الأدبية والجمالية على الخطاب الرحلي فأمسى وكأنّه فسيفساء جمع فيه الرحالة بين التاريخ والحكي والقصص والمقامات الأمر الذي يجعل القارئ يحس أنّه يطالع مجموعة كتب لا كتابا واحدا ومن هذه الفنون:

1- المقـــامـــات :

لا مشاحة في أن يضمّن ابن حمادوش رحلته بعضا من المقامات التي كتبها، فقد ذكر في أكثر من موضع في رحلته أنّه اطلع على مقامات الحريري كما هو الحال في قوله:" ويوم الخميس اشتريت مقامات الحريري بخمسة أوراق موزونات" [3] وكذلك في قوله:" وفي يوم الثلاثاء ختمت المقامات الحريرية التي كنت ابتدأتها في تطوان في بيتي، قرأت هناك سبع مقامات وأكملت الباقي هنا.." [1] يقصد في الجزائر.

وما من شك في أنّ ابن حمادوش قد تأثّر بمقامات الحريري وبأسلوبها الأمر الذي جعله يحاول أن ينسج على منوالها أو يحاكيها، فكتب ثلاث مقامات وشّح بها رحلته ولا ندري إذا كان قد كتب غير هذه المقامات الثلاث، ولكننا سنكتفي بإيراد ما وجدناه موظّفا في متن الرحلة .

المقامة الأولى: هي مقامة وصف فيها حالته النّفسية عندما كان في المغرب في الطريق من تطوان إلى مكناس، وقد تحدّث فيها عن هدفه من زيارة المغرب مرافقا لبعض التجار والطريق التي مرّوا بها والأخطار التي تعرّضوا إليها من العربان

---

[3] المصدر نفسه، ص71.

[1] ابن حمادوش (عبد الرزاق): الرحلة، ص80.

واللصوص وغرائب ما شاهد وقد استهلها بقوله:"الحمد لله، طحى بي ضيق الأسباب وهوى الاكتساب، إلى أن خطرت من شدّة الإياس، إلى بلاد الملك مكناس، أخوض الغمار لأجتني الثمار، وأقتحم الأخطار لكي أدرك الأوطار، وكنت لقفت من أفواه العلماء أنّ الخطأ غرور وأنّ المسافر مبرور، فشددت منطقتي، لكي أدفع أزمتي، ورافقت اثنين من التجار، كأنهما من الأبرار، فاكترنا من حمار كأنّه أراد ابتدائي بالعار، فرددت عاره، وخبأت ناره، بما فيه أوطاره، حتى يحمد جواره فخرجنا من تطوان إلى السفر، يوم السبت ثامن من عشر صفر..." [2] وهي مقامة ختمها بشعر ذمّ فيه أولاد مختار على بخلهم، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

المقامة الثانية (الحالية): وهي من المقامات التي جوّد بها وارتفع وأدلى لنا بمعلومات مفيدة فنفع، وقد وسماها كذلك لأنّه وصف فيها بشكل رمزي حالته بين الناس وخسارة تجارته ودنو أجله وتعلقه بشخص تجريدي هام به حبا، ومع ذلك سبب له التعب والنكد. وكانت خاتمتها أدعية وأشعارا كما جرت عليه العادة في المقامات القديمة، وقد استهلها بقوله:" الحمد لله محوّل الأحوال، ومرخي البال، ومقلّب الأمور، في الدّهور، والصلاة والسلام على خير الآنام، المبشّر بالفرج بعد الشدة، والمنذر بالعناء بعد اللّذة فقال تعالى فإنّ مع العسر يسرا، إنّ مع العسر يسرا، وبعد لما جرى القضاء المحتوم ، والأمر الملزوم بأن خفّ الريش، وأكل الجويش، ومضض العيش فخلفني الجيش..."[1]

ولو تفحّص القارئ هذه المقامات قليلا لوجد فيها تناغما صوتيا نتج عن استخدام الرحالة للسجع والجناس ولا غرابة في ذلك لأنّهما عُدَّا من أساليب المقامات التقليدية، وما يلاحظ أيضا في أسلوب هذه المقامات أنّها تستند في بعض الأحيان إلى ما يسمى بالتناص وهو الأمر الذي استطعنا أن نستشفه من كلام ابن حمادوش في هذه المقامة، خاصة في قوله"مضض العيش فخلفني الجيش" حيث يبدو جليا

[2] المصدر نفسه، ص71.

[1] ابن حمادوش (عبد الرزاق): الرحلة، ص164.

للقارئ أنّ هذا القول يتناص ويتعالق مع المثل القائل:" مرة عيش ومرة جيش" أي مرة تنفع ومرة تضر، أو مرة معي ومرة علي.

المقامة الثالثة (الهركلية*): ويمكن لنا أن ندرجها في صنف المقامات الاجتماعية أو الانتقادية وهي مقامة عرض فيها نمطاً من أنماط الفساد الاجتماعي والأخلاقي الذي كان متفشّيا في المغرب وفي فاس على وجه التحديد حيث يقول فيها:" الحمد لله حدا بي حادي الرحلة إلى أن دخلت في بعض أسفاري هركلة، فنزلت بها في خان، كأنّه من أبيات النيران، أو كنائس الرهبان، بل لا شك أنّه من أبيات العصيان، فلذلك لا يسرّ به الناظر، ولا ينشرح له الخاطر، فاختصصت منه بحجرة، أو نقرة في حجرة، وكأنّي وقعت من السماء في حفرة...وصرنا كالأموات، وتوغّلت في حبائل النوم، ولم أدر ما هنالك من القوم، فلم يوقظني إلاّ جلبة الأصوات، وتداعي القينات، والتّدافع بمنع وهات، وبعض هادٍ وبعض عادٍ، وإذا بجَارِي بيت بيت يحاسب قينة على كيت وكيت، وهي تقول له: فعلت كذا وكذا فعله، وتدفع أجر فعله..." [2]

والملاحظ أنّ ابن حمادوش في هذه المقامات قد اعتنى بالجانب الأسلوبي الذي يتبدى في انتقائه للألفاظ المنتقاة المستأنسة ذات الدلالات البعيدة والسجع الرشيق بالإضافة إلى جانب المضمون المتنوّع بين الجدّ والهزل، هذا فضلا عن توفر هاته المقامات على عنصر الحكي .

وقد تخلل المقامة الثانية الكثير من أسماء الوديان مثل: (وادي بوصفيحة، وادي الخروب ، وادي المخازي..) وقد أحسن ابن حمادوش في رسم صورها فجاءت مقامته آية في الوصف، أفاض عليها مؤلفها من بيانه ما هو معهود من إتقانه، ومعدود في إحسانه.

وبهذا فقد استطاع ابن حمادوش أن ينقل لنا صورة جزئية عن المجتمع المغربي بواقعية متناهية، ومن هذه الزاوية يمكن أن نعدّ مقاماته الثلاث وثيقة اجتماعية في التعرّف على عادات أهل المغرب وأنماطهم السلوكية في القرن الثامن عشر للميلاد

* يقصد بالهركلة الهرج ونحوه.

[2] المصدر السابق، ص79.

خاصة وأنّ ابن حمادوش قد بدا في رحلته ذا بصر ثاقب بطبيعة النّاس وملاحظات دقيقة .

2- الرسائـــــــل:

قدّمت رحلة ابن حمادوش صورة عن السمات الفنيّة لأسلوب الرسائل في عصره، فقد احتوت على رسالة تعزية عزّاه بها المفتي محمد بن حسين عند وفاة أحد أبنائه، وقد اعتذر المفتي عن عدم حضور الجنازة شخصيا وضمّن رسالته آيات قرآنية وأحاديث نبوية في الحثّ على الصّبر والتّحمل عند الفجائع، ومما جاء فيها قول المفتي:" فقد بلغنا ما أحار الأذهان وأشجاها، وأطار النور من الأجفان وأبلاها، وأضرم لواعج الأشواق، وأذكى زواعج الاحتراق، بالذي صدع أعشار القلوب، وأفاض صحن الخد الدموع من الغروب، حتى أدركتني محنتك وموت ولدك فأخذتني الصدمة، وهيجت لي المحنة، فلقد رمانا الدّهر بسهام صروفه فأصماها، وتعهّدنا خطبه فهدّ عروشا وأركانا، فاصبر له صبر الجواد، إنما صبر الكريم على الرّزية أجمل..."[1] وهي رسالة مسجعة ولكن جملها خفيفة وأسلوبها جيّد وما يلاحظ عليها أنّ صاحبها قد اتبع فيها المقومات الأساسية لفن الرسائل حيث ابتدأها بالبسملة والحمدلة والتصلية على النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكر الموضوع وهو تقديم العزاء والاعتذار عن عدم حضور مراسيم الجنازة.

[1] ابن حمادوش(عبد الرزاق): الرحلة، ص150.

3- الحكايات والقصص والأساطير:

تحتوي رحلة ابن حمادوش على كثير من القصص والحكايات التي اختارها صاحبها ووظفها بغية الترويح عن القراء وإضفاء سمة الأدبية عليها لأنّ في هذه القصص ما يكسر رتابة الواقع فيجعل الرحلة على الرّغم من كونها واقعية تستند إلى الخيال ويمكن أن نرجع ذلك أيضا إلى رغبة دفينة لدى صاحب الرحلة في العزوف عن هذا الواقع عن طريق هذا النمط من التوظيف، ومن القصص الأسطورية التي أوردها ابن حمادوش في رحلته قصة العنقاء مع سيدنا سليمان عليه السلام وهي أسطورة عربية في القضاء والقدر وكذا قصة مقتل الحلاج وقصة الفيل هذا فضلا عن توظيفه لقصص أخرى كقصة الخيزران وقصة الطفيلي وغيرها.

4- عقـــود الزواج :

في رحلة ابن حمادوش نصوص لعقود زواج مختلفة منها الفقهي التقليدي ومنها الأدبي الاجتماعي، ومنها الذي كتب لبكر والذي كتب لثيب، ومنها القصير ومنها المطوّل، وجميعها تصلح نموذجا لدراسة الحياة الاجتماعية، ومما أورده ابن حمادوش كصيغة لعقد زواج بكر، العقد الذي كتبه محمد بن عبد المؤمن والذي جاء فيه " وبعد هذا القول الذي أشرقت أنواره في رقم هذا الرقيم، وسقى أرضها الأريضة من در عنصر البلاغة من نثر البراعة ما أبان عن فضل العلم الموهوب من الحكيم العليم، فنمق أديمها بسطره الأبهج، وعطر أنفاسها بتنميق زهره الأبلج، كأنّه الحلة السيراء نشرت في غرة الصباح، فأضاءت لها الأباطح والربا وأغنتها إغناء الصباح عن المصباح، فإن النكاح جالب اليسار، حافظ الحسب والمقدار..." [1] ويشغل هذا العقد حوالي أربع صفحات من الرحلة، كلّها على هذا النحو من الأسلوب مع تفصيل وتدقيق فيذكر الالتزام بين الطرفين والصداق وغيرها .

[1] ابن حمادوش(عبد الرزاق): الرحلة، ص138.

5- الإجازات والتقـاريظ:

لقد ضمّن ابن حمادوش في رحلته أيضا مجموعة من الإجازات التي تحصّل عليها من خلال مسيرته العلمية حيث ذكر أسماء الشيوخ الذين أجازوه ومواد الدراسة ومن بين هذه الإجازات تلك الإجازة التي منحها له شيخه البناني والتي جاء على لسان ابن حمادوش فيها ما نصه " فهذا ما وجدت في الكراستين، والذي كتب لي في إجازتي ما صورته، الحمد للّه الذّي شيّد بصحيح الإسناد منار الإسلام ورفع دعائمه على كواهل صدور أئمته الأعلام، والصلاة والسلام على خير من أجاز السائل بأفضل ممّا رام، وعلى آله وأصحابه السادات الكرام وبعد، فإنّ الفقيه الأجلّ، العلامة الأفضل، المدرس الأحفل، الشريف الأمثل، السيد عبد الرزاق الجزائري المالكي قد تردّد إليّ في طلب العلم الشريف، وحضر لدّي في غير ما درس للعلم المنيف، حضور استفادة وتحصيل، جادا في الطلب بأيّما تأصيل، رافضا للشواغل الصادة، ومجانبا للأمور المضادة، فألفيته، رعاه الله، قد لمع برق نجابته، وقارب الكمال العرفي بدر درايته، واشتّد في غالب الفنون المتداولة في الوقت ساعده، وتأهّل لأن يؤخذ عنه مما يحاوله من العلوم فوائده، ولعمري لهو أهل لذلك ... ثمّ قلت أجزت الفقيه المذكور جميع ما يجوز لي عني روايته مقروء ومسموع ومجاز..."[2].

ولم تكن إجازة البناني هي الإجازة الوحيدة التي تحصّل عليها ابن حمادوش فقد عثرنا في رحلته على نموذج لإجازة أخرى منحها له شيخه الورززي وقد جاء فيها:"إنّ الشريف الفاضل العلامة سيدنا ومولانا عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري دارا ومنشأً، رغب أن يسمع منّي ما سهّل الله سبحانه من الحديث مما سمعته عن أشياخي رحمنا الله وإياهم، فأسعفته في رغبته فأسمعته بعض موطأ مالك بن أنس، رضي الله عنه، من رواية يحيى بن يحيى اللّيثي وأجزته سائره، وأسمعته بعض صحيح مسلم بن الحجاج القشيري وأجزته سائره..."[1].

---

[2] المصدر نفسه، ص62.

[1] ابن حمادوش (عبد الرزاق): الرحلة، ص37.

ويذكر ابن حمادوش في رحلته أنّه تحصّل على إجازات أخرى منها إجازة السرايري التي قال فيها:" الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد ونبيه ومصطفاه، وبعد، فقد طلب منّي الفقيه النجيب، الأديب الأريب، العلامة الأوحد سيدنا ومولانا عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري دارا ومنشأً، طلب منّي الإجازة، مع عدم أهليتي لذلك، فأجبته وأجزته فيما سمع وفي غير ذلك ممّا يصّح لي وعنّي روايته إجازة تامة عامة..."[2].

ولعلّ أقلّ ما يلاحظ في هذه الإجازات هو أنّ أسلوبها يبدو أقرب إلى الأسلوب الأدبي لأنّ أصحابها كانوا من الأدباء المهرة فأضفوا عليها طابعهم وذوقهم ولهذا ذهب الباحث أبو القاسم سعد إلى اعتبار أنّ الإجازة " قطعة أدبية من حيث الأسلوب على الأقّل"[3] .

ومن أشكال النثر الأدبي التي عمد ابن حمادوش على توظيفها في رحلته أيضاً التقاريظ التي كانت تبرز فيها ثقافة الكاتب الأدبية واللّغوية وكان غالبا ما يمزج فيها أصحابها بين النثر والشعر كما هو الحال في التقريظ الذي وضعه أحمد بن عمار لكتاب "الدرر على المختصر" الذي وضعه ابن حمادوش في المنطق والذّي قال فيه:" ناهيك به مؤلفا مجموعا، مبذولا خيره لا ممنوعا، قد أحكم فيه الرصف والالتئام، واستخدم لطائف المعاني في بديع الكلام، حتّى أفضّ عن (المختصر) الختام، وكشف وجوه خرائده اللثام، ووضع كنوز فرائده على طرف الثمام، فأصبح به إذ ذاك في أعلا الذري، وطلع في سماء المعالي والمكارم بدرا، هذا ولا عيب فيه غير أنّه كتاب صغر جرما، وغزر علما، قد أودع فيه من لطائف المعاني العجيبة الرائقة، والألفاظ البديعة الفائقة، ما هزّ به أعطاف الآداب، واستمال قلوب أولي الألباب"[1].

---

[2] المصدر نفسه، ص 67.

[3] سعد الله(أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي، ص 190.

[1] ابن حمادوش (عبد الرزاق): الرحلة، ص261.

والملاحظ على أسلوب ابن عمار في هذا التقريظ هو أنّه يمتاز بكثرة السجع والعناية بالمحسنات البديعية ولا غرابة في ذلك فقد كان من أقطاب الصنعة اللّفظية. وقد ختم ابن عمار تقريظه هذا بستة أبيات من الشعر منها قوله:

هَنِيئـــًا هَنِيئـــاً أَيَا مُخْتَصَرْ بِشَرْحِ بَدِيعِ جُمُوعٍ أَغَّرْ

وبُشْرَى لِقَـارِئِكَ المُرْتَضَى بِمَا قَدْ حَوَاهُ كِتَابُ الدُرَرْ [2]

وصفوة القول تتجلى في أنّ رحلة ابن حمادوش رحلة غنية جدا ولا يمكن لنا أن نتحدّث عن كلّ ما جاء فيها من موضوعات لأنّ ذلك يثقل البحث وما ذكرناه منها ما هو إلاّ غيض من فيض .

5- رحلاته وتأثيراتها على أدبه:

لا مندوحة لنا من الاعتراف بأنّ جلّ ما كتبه ابن حمادوش في رحلته ما هو في حقيقة الأمر إلاّ نتاج لرحلاته المتعددة إلى المغرب، بل لم تكن هذه البلاد وحدها مقصدا لابن حمادوش فقد لمّح في رحلته بأنّه زار بلدانا أخرى، وكان كثيرا ما يجري مقارنات بينها وبين ما رآه في الجزائر، ومن بين الأقطار التي ذكرها ابن حمادوش في رحلته مصر وقد أثبتت جلّ المصادر بأنّ ابن حمادوش كان كثير الأسفار، وقد أقرّ هو بنفسه بهذه الحقيقة في قصيدة قالها في السلطان عبد الله :

وجُبْتُ بِلاَدَ التُّرْكِ والعَرَبِ والعَجَمِ عَلَى قَدَمِي طَوْرًا وطَوْرًا عَلَى الحُمُرِ [3]

وبناء على كلام ابن حمادوش نفسه فإنّ رحلاته كانت متعددة وليس المغرب إلاّ واحد من أسفاره، وربما يرجع اهتمام ابن حمادوش بالمغرب والكتابة عنه هاجسا أثّر في نفسه ممّا جعله يكتب عنه دون غيره، وكما اختلفت البلدان والأقطار التي قصدها الرحالة اختلفت أيضا الوسائل فكان يسافر إمّا عن طريق البرّ راجلاً أو ممتطيا ظهور الحمير وإمّا في البحر عن طريق المراكب كما هو الحال في رحلته إلى المغرب .

---

[2] المصدر نفسه، ص 261.

[3] المصدر نفسه، ص116.

ولا شكّ في أنّ ابن حمادوش قد صادف أثناء أسفاره وإقامته بهذه البلدان العلماء خاصة وأن رحلته كانت بسبب طلب العلم، كما أنّه صادف العامة وتجوّل في أسواق هذه البلدان وتعرّف على أحوالها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وعاصر بعض المواقف والأحداث، ليرجع بعد ذلك إلى بلده الجزائر وهو يحمل مزيجا من الثقافات فيدوّن رحلته "لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال"، وذهنه ممتلئ بزخم معرفي وحمولة ثقافية لم يجد ابن حمادوش مجالا لإفراغها سوى بكتابة هذه الرحلة، فدوّن فيها كلّ ما جادت به قريحته وكل ما صادفه في تلك الأمصار والأقطار ولا شك أن ينعكس ذلك على أسلوبه في الرحلة وعلى منهجه فيها أيضا .لأنّ التعبير عن هذا الزخم المعرفي والتمازج الثقافي لا يمكن للرحالة أن يتجرّد منهما أثناء الكتابة بل إنّ حضورهما سيلج بشكل أو بآخر في أسلوب الكاتب حتّى وإن أبى ذلك.

ولتبيان حضور ثقافة الآخر في رحلته وتأثريها فيها ارتأينا أن نقسم كلامنا كما يلي:

أ التفتّح الثقافي:

إنّ سمة التّفتّح الثقافي(المثاقفة) من أبرز السمات في الرحلات إذ لا يمكن للرحالة أن يتجرّد منها، ويقصد بالمثاقفة "تبادل الأثر والتّأثير من حيث انتقال الأفكار في صورة إيجابية" [1] أو تلاقح الأفكار وامتزاجها وذوبان النحن في الآخر والآخر في النحن، بحيث يستفيد من عملية المثاقفة الطرفين معا ويتبادلان النّفع.

والجدير بالذّكر أنّ الرحلات عموما ورحلة ابن حمادوش على وجه التّحديد شكّلت لونا من ألوان التّبادل الفكري والأدبي، إذ مثّلت واسطة احتكاك بين الثقافات المختلفة من جانب، وأداة تفاعل داخل الثقافة الواحدة من جانب آخر، فلو تأملنا مثلا ما رواه الرحالة عن عادات أهل فاس يختلف عن عادات وثقافة أهل مكناس وغيرها، ممّا سنفصّل فيه كثيرا في حديثنا عن صورة المغرب في رحلة ابن حمادوش، كما لمس الرحالة الفوارق بين مختلف الثقافات في البلدان التي قصدها بل وحتى بين مدن البلد الواحد ، وألّم بمظاهر الحضارة في تلك المواطن التي زارها، فأصبحت جزءاً من

---

[1] حضري (جمال): سؤال المثاقفة وتوليد المعايير النّقدية، حوليات التّراث، مجلة دورية محكمة تصدر عن كلّية الآداب والفنون، جامعة مستغانم، ع02، سبتمبر،2004، ص27.

تكوينه الثّقافي، وشكّل بعضها الآخر صراعا حضاريا في فكر الرّحالة لاسيما مواقف الحريّة والمساواة فقد ذكر ابن حمادوش في رحلته بأنّ المرأة كانت تحضر الجنائز مثلها مثل الرجل تماما وتشاور في أمر زواجها.

وقد أدّت الرّحلة دورا كبيرا في الكشف عن مختلف الثّقافات الإنسانية الثّقافية واللّغوية والدّينية، وجوانب الحياة اليومية، البيئة والملبس والمأكل، والعادات والتّقاليد، والاحتفالات ... وكثيرا ما كان الرّحالة يقارن بين واقع مجتمعه (الجزائر) وواقع المجتمعات الأخرى التّي قصدها (المغرب، تونس، مصر...وغيرها)، حيث اتّصل الرحالة بشعوب البلدان التّي قصدها، ثمّ انتقل إلى شعوب أخرى وثقافات جديدة، وعاد بعد ذلك إلى بلاده بشخصيّة صقلتها التّجارب، وبثقافات مختلف الأمصار والأقطار.

ويبدو بأنّ ابن حمادوش قد خرج من المغرب بعدما طُبِع بثقافة هذا البلد الخاصّة، خاصة وأنّه قد ذكر بأنّ الهدف من رحلته إلى المغرب هو طلب العلم، ولا شكّ في أنّ هذا الرّحالة قد أفاد إفادة جمّة من علماء المغرب بعد دراسته على يد مشايخها الذين ترجم لهم في الرحلة وكثيرا ما كان ينظم فيهم قصائد طوالاً، شكرا وتقديرا لجهودهم فأجازه البعض منهم وأجاز هو بدوره أيضا، وتاجر وتعلّم في مساجد بلاد المغرب والتقى بالعلماء والتجار بحكم ممارسته لمهنة التجارة، وقد ذكر في أكثر من موضع في الرحلة بأنّه كان ينقل معه كتبا من الجزائر وأحيانا أخرى يجلب الكتب من المغرب ويبيعها في الجزائر في دكانه ، وقد كان لهذا الرحالة فضل كبير في نقل المعارف وتبادل الثقافات إذ نقل هذه الثروة العلمية التي كوّنها إلى بلاده بكلّ ما فيها من فقه وحديث ولغة وطب خاصة وأنّه كان عشابا.

ولم يقف الأمر عند انتقال الرحالة الجزائريين إلى المغرب، بل إنّ علماء المغرب كانوا يفدون إلى الجزائر أيضا، وكانت كتبهم ترافقهم ممّا أنبأ بحركة ثقافية متبادلة ساهمت في نمو الحركة العلمية والفكرية في المغرب والجزائر ولعلّ ما يؤكد هذا التبادل هو حضور بعض الجزائريين لدروس المغاربة كما هو وارد في الرحلة على لسان ابن حمادوش:" فدخلت تطوان وصليت الظهر بها مع الجماعة، ثمّ ذهبت إلى

بيتي وكنت أنظم قصيدة لأدفعها للشّيخ امحمد البناني ففي يوم السبت دفعتها له حين افترقنا من قراءة البخاري، وكان أوّل يوم حضرت درسه من بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشّمس، وكان يدرّس بزاوية سيدي أحمد بن الناصر، وجدته في كتاب الدعوات وكان مسمعه سيدي الحاج محمد بوزبع التلمساني الجزائري"[1].

ويتضّح من هذا الكلام مدى اهتمام الجزائريين وشغفهم بالعلم، كما يستشّف أيضا أنّ هناك روابط عديدة وصلات كثيرة تربط بين البلدين والتي بإمكانها أن تصبح عوامل تمازج ثقافي وتفاعل فكري فإذا كانت التجارة والرحلة في طلب العلم عاملا أساسيا في ذلك إلى أنّنا نجد أنّ المصاهرات والأعياد والاحتفالات قد كان لها دورها الفعال أيضا في تبادل المعارف وفي تفتّح الرحالة على ثقافة الآخر، ذلك أنّ التمازج والتّفاعل بين أفراد المجتمعات وخاصة عن طريق المصاهرة قد ساهم في ازدياد الصلات وتوثيقها وتماسكها، ولاشكّ في أنّ هذا التمازج الاجتماعي والعرقي أثّرا تأثيرا واضحا في المجال الثّقافي خاصة، فتلاقحت الثّقافات، وتحاورت الحضارات ضمن مبدأ التّأثير والتّأثر، أمّا الأعياد والاحتفالات فقد شكّلت هي بدورها واسطة تفاعل بين الشعوب التي قصدها الرّحالة وكثيرا ما كان ابن حمادوش في رحلته ينقل لنا أجواء الاحتفالات بعيد الأضحى والمولد النبوي بالمغرب ولا شكّ بأنّ مثل هذه المناسبات ينجم عنها تعايش بين أفراد المجتمعين، وشيوع لبعض المظاهر التّي تمثّل التّمازج الثّقافي والحضاري بين سكان البلدين، حيث تتسع دائرة الاختلاط .

وبهذا فقد قدّمت الرّحلات تصوّرا واضحا عن مدى التّنوّع والاختلاف في العادات والتّقاليد المحليّة، ونقل الرّحالة صورا واضحة عن كلّ المناطق التّي قصدها، ليؤكّد أنّ الثقافة الإنسانية متنوّعة ومتعدّدة لجميع المناسبات والعادات وتقاليد الشعب الآخر(المغربي) ، وعكس بذلك حقيقة التّفاعل بين الإنسان والمجتمع.

---

[1] ابن حمادوش(عبد الرّزاق): الرحلة، ص 34.

ويعتبر الحجّ باعتباره مناسبة دينية أحد أهمّ عوامل التبادل الثقافي بحكم اختلاط الشعوب وامتزاجها، وبما أنّ رحلة ابن حمادوش كانت علمية فإنّ حديثه عن هذه المناسبة لم يكن واردا في رحلته كما أنّ تواجد الأماكن المقدّسة بالمشرق وتوجه ابن للمغرب حال دون حديثه عن ذلك.

وتعدّ المساجد واسطة تفاعل ثقافي من خلال عقدها لحلقات التّناظر والتّحاور العلمي والأدبي، حيث شارك الرّحالة في مثل هذه الحلقات العلمية والأدبية التّي كانت تجري بين العلماء الذين توافدوا من مختلف الأنحاء الإسلامية فتعلّم الرّحالة وعلّم، يقول ابن حمادوش:" وفي يوم الخميس لقيت الشّيخ الورززي في جامع لكاش فأتاني بالبخاري ومسلم وموطأ مالك وسمّى الله تعالى ثمّ سرد سنده إلى المؤلف وقرأ منه نحو الورقة فوضعه ثمّ سرد سنده لمسلم إلى المؤلف فسرد منه ما تيسر ثمّ وضعه وسرد سنده إلى الموطأ، وكلّ ذلك من كنّاشه، وسرد منها ما تيّسر ثمّ أجازني"[1].

ويتّضح من ذلك أنّ الرّحالة كانوا يتطلعون إلى مراكز الإشعاع العلمي أينما وجدت، ممّا مثّل تيارا علميا، نقل معه الكثير ممّا عند أهل المغرب من علم ومعرفة إلى الجزائر، فهيّأ ذلك فرصة للإفادة المتبادلة بين الثقافات وتقريب الأفكار، وكما استقطب المغرب الكثير من العلماء والفقهاء والأدباء، استقطبت الجزائر العديد منهم أيضا فكانت الرّحلات وسيلة لنقل المعارف والعلوم والثقافات من شعب لآخر.

وقد أشار الباحث شعيب حليفي إلى دور الرحلات في تحقيق المثاقفة ووضع كلامه تحت عنوان: "رحلات المثاقفة" وقد جاء فيه ما يلي:" انصرفت جهود العديد من الرّحالة إلى تدوين رحلات ضمن خانة الرحلات الوصفية التّي يدوّنها الرّحالة عقب رحلة سافر فيها إلى مكان آخر بقصد التّحصيل العلمي، وتلاقح التجارب الثّقافية، والاحتكاك بمكونات معرفية وثقافية أخرى" [1] ممّا يسمح له بتكوين ثقافة موسوعية يسعى إلى إغناء الآخر بها وصقلها عبر التّثاقف والاحتكاك والتّلاقح.

---

[1] المصدر السّابق، ص35.

[1] حليفي(شعيب): الرحلة في الأدب العربي، ص 150.

وصفوة القول تتجلّى في أنّ الرّحلات كان لها دور بارز في تلاقح المعارف وتزاوجها فبفضل الرّحلة استطاع الرّحالة التّفتّح على ثقافة الآخر كما استطاع أيضا أن ينقل ثقافته إليه فأصبح جسرا لعبور المعارف والتقاطها في آن واحد.

ب- خصوصيات أدب الرحلة:

ينماز أدب الرحلة عن غيره من فنون الأدب الأخرى بمجموعة من الخصائص وهي سمات تكاد تحضر في جلّ النصوص الرَّحَليَة إلاّ أنّ الفرق يتجلى في تفاوت الرّحالين في الاستعانة بهذا العنصر أو ذلك ومن هذه السمات:

1- **الشّمولية والتّنوّع:** وهما ملمحان بارزان في معظم ما كتب في هذا الميدان يقول الباحث سيد حامد النّساج:" تتسّع موضوعات الرّحالة فتشمل كتبهم التاريخ والجغرافيا والدين والاجتماع والسياسة"[2] ومعنى ذلك أنّ أدب الرحلة أدب يشمل الحياة بكلّ ما فيها من تفاصيل ويلّم بمختلف الجوانب الخاصة بالإنسان، فتجد الحديث عن البيئة والمأكل والملبس والعادات والتّقاليد والنظم الاجتماعية والسياسية وإدراج لحقائق تاريخية ووصف للحركة الثقافية وغير ذلك من الأمور، كما أنّ أدب الرحلات له القدرة على تناول مختلف المواضيع وهو ما أشار إليه الباحث ناصر عبد الرّزاق الموافي في قوله:" أدب الرّحلة وعاء لكلّ مضمون، وهو لا يفرق بين مضمون خسيس وآخر شريف أو بين مضمون مهّم وآخر تافه فكلّ مضمون قابل للتّدوين طالما قبله ذوق الرّحال واقتنع به"[3] .

---

[2] النّساج(سيد حامد): مشوار كتب الرّحلة قديما وحديثا، ص09.

[3] الموافي(ناصر عبد الرّزاق): الرّحلة في الأدب العربي حتّى نهاية القرن الرابع الهجري، ص48.

2- الحسّ الإسلامي:

وهي سمة تكاد تطغى في معظم الرّحلات وتتّبدى في توظيف الرّحالة لأساليب القرآن الكريم أو الحديث الشريف سواء عن طريق الاقتباس أو التّضمين حتّى أصبحت هذه الأساليب جزءا لا يتجزّأ من لغة الرّحالة ومن ثقافته الخاصة .

3- الحسّ النقدي:

إنّ الرّحالة وهو ينتقل من موضع لآخر يدّون كلّ ما تلتقطه عدسته من مشاهد وهو لا يكتفي بالمشاهدة والوصف فقط بل إنّه يتعدّاهما إلى التّفسير والنّقد ولهذا يرى الباحث ناصر عبد الرّزاق الموافي أنّ:" أهّم ما يجب أن يتحلى به الرّحال هو امتلاك روح النّاقد البصير المحايد، وإذا لم تكن هذه الروح كامنة فيه قبل تحرّكه، فإنّ الرحلة كفيلة ببثّها في نفسه"[1] .

4- النّزعة إلى الواقعية:

استطاع الرّحالة أن يختاروا من الأحداث ما يظهر رؤيتهم وانطباعاتهم في هذه الرّحلات واتّضح ذلك فيما حملته رحلاتهم من مضامين ناقدة باصرة لما حولها، وذات مزيج ثقافي فكانت رحلاتهم صورة لممارساتهم في هذه الرّحلات ومن مظاهر هذه الواقعية ذكر التّفاصيل الدقيقة عن الأماكن التّي مرّوا بها بشكل صريح، وما يؤكد واقعية الرّحلة كونها محددة بإطار زماني ومكاني.

5- النّزعة القصصية:

على الرّغم من أن أدب الرحلات يقترب من الواقع إلاّ أنّ ذلك لم يمنع الرّحالة من محاولة نقل هذا الواقع وتصويره للمتلقي وكأنّه قصّة صادقة عنه لم يكن للخيال فيها مجال إلاّ في بعض المواقف التّي تستدعي ذلك كإيجاد الشخصيات وخلق الحوادث.

---

[1] المرجع السابق، ص 55.

6- **الطابع الوثائقي** : الرحلة وثيقة يمكن الركون إليها فهي محددة الزمان والمكان،واقعية ذات أهداف ونتائج، هذا فضلا عن كونها معروفة المؤلف وفي هذا يقول الباحث عبد الرّزاق الموافي:" الرّحلة وثيقة حيّة ، ونتاج معاينة ومعاناة وأذواق منقحة" [1].

7- **الطابع الإنساني** : الرّحالة إنسان يصف الإنسان بكلّ جوانبه الخَلقية والخُلقية وصفاته العقلية والنّفسية وعاداته ومعتقداته وما إلى ذلك.

8- **الطابع الجمالي:** إنّ إحساس الرّحالة بالجمال هو الذي دفعه إلى وصف المشاهد ولكن الجمال الذي يخرج الرّحال من أجله موضوعه المتعة ولا علاقة له بالمنفعة الحسية .

9**_ الوصف:** لا تخلو رحلة من الرحلات من عنصر الوصف باعتباره عنصرا أساسا فالرّحالة وهو ينتقل من مكان لآخر يلاحظ ويصف كلّ ما تقع عليه عينيه من مشاهد فيصف البيئة والمطبخ والعادات والتّقاليد والعمران وما إلى ذلك.

10- توفر أدب الرحلات على تيمة السفر.

11- تنوّع الأسلوب من السّرد القصصي للمغامرات والعواطف المحرّكة للبشر إلى الحوار والوصف الطريف وغيره.

وبعد فهذه هي أهّم الخصائص التي استطعنا أن نستخلصها، هذا فضلا عن بعض السمات المبثوثة في ثنايا الدراسة.

ج- تجنيسها:

إنّ الأجناس الأدبية تتمايز فيما بينها من حيث طبيعتها وتقاليدها الفنيّة وعناصر تكوينها وهذا ما يؤكّده الباحث محمد غنيمي هلال في قوله: "إنّ الأجناس الأدبية لها طابع عام وأسس فنيّة بها يتوّحد كلّ جنس أدبي في ذاته ويتميّز عمّا سواه" [2] ومادامت الرحلات جميعها تشترك في مجموعة من الخصائص وتتّفق في مضامينها

---

[1] المرجع السابق ، ص49.

[2] غنيمي هلال(محمد): الأدب المقارن، دار نهضة مصر للطباعة والنّشر، القاهرة،ط1998،3، ص118.

وتتمتّع بسردها المميّز النّابع من بنية أو تيمة السّفر هذه السمة التي تجعل من أدب الرحلات جنساً أدبيا مميّزا يستحّق أن يجد لنفسه مكانة في خانة الأجناس الأدبية، كما أنّ الاتّفاق الحاصل بين الباحثين والنّقاد الذين سبق ذكرهم من قبل من شأنه أن يؤكّد الطابع الأجناسي للرّحلة باعتبارها خطابا ذو خصوصيات مستقلّة ولغة وبناء فنيّ مميّزين.

وبما أنّ أدب الرّحلات هو فنّ قائم بذاته، له أصوله وقواعده، التّي تتيح له قدرا كبيرا من المرونة والقدرة على التّطوّر والتّلوّن حسب كلّ فرد وعصر وبيئة فإنّ ذلك يمنح أدب الرّحلات خصوصية أكثر ممّا يجعلنا نصنّفه ونجنّسه في إطار محدّد

الفصل الثالث:

صورة المغرب والجزائر من خلال رحلة ابن حمادوش

1- صـــورة المغـــرب:

أ- الحياة الاجتماعية.

ب-الحياة السيـــاسية.

ج- الحياة العلمية الثقـــافيـة.

2- صورة الجزائـــــــر:

أ- الحياة الاجتماعية.

ب-الحياة السيـــاسية.

ج- الحياة الثقـــافيـة.

3- قيمـــــــــة الرحلة.

إنّ دراسة موضوع الصورة في رحلة ابن حمادوش الجزائري لا يمكن أن يتّم دون معرفة مفهومها وحقل اشتغالها وعلاقتها بالأدب الرحلي ولهذا كان لزاما علينا قبل الولوج في إبراز تجليات هذه الصورة (صورة المغرب والجزائر) في هذا النص الرحلي أن نبسط للقارئ مجموعة من التصورات حول هذه الأخيرة.

ومن هذا المنطلق ارتأينا أن نشير إلى آراء الباحثين في الصورة، على اعتبار أنّها تشكّل علما قائما بحدّ ذاته يدعى الصورولوجيا **(Imagologie)** الذي يعدّ حقلا موسعا للبحث وتفكيك الخطابات للوقوف على" دراسة صورة مجتمع في الوعي أو في العمل الأدبي لشعب ما من خلال التوغل في بلاغتها أو اتخاذها قطبا في مواجهة قطب آخر، بالمقارنة بين صورتين وبين وعيين وصوتين وقيم عالمين سواء من منظور واحد (الراوي) أو عبر منظورات منقولة ومحوّلة (أصوات الغير) حيث يتّم تنضيدها ضمن قنوات الرصيد الثقافي والمعرفي للراوي ولهذا يرى البعض بأنّ الصورة لا يمكن أن تولد من المقارنة وإنما من واقعين متباعدين" [1].

ونلمس في هذا الكلام أنّ دارس الصورة ينبغي أن يتوفر لديه عالمين أو منظومتين من الواقع الثقافي حتّى يستطيع المقارنة بينهما كما أنّ الصورة التي يرسمها أديب ما عن مجتمع من المجتمعات هي ملونة بثقافة هذا الأديب الخاصة .

ويقترب من هذا الرأي ما جاء به الباحث (دانييل هنري باجو) الذي يقول بأنّ : " كلّ صورة تنبثق عن إحساس مهما ضئيلا (بالأنا) بالمقارنة مع (الآخر) وبهنا بالمقارنة مع مكان آخر...إنّها تعبير أدبي أو غير أدبي عن انزياح ذي مغزى بين منظومتين من الواقع الثقافي" [2] بمعنى أنّ الصورة هي إعادة تقديم لواقع ثقافي يكشف من خلاله الرحالة ويترجم الفضاء الاجتماعي والثقافي والإيديولوجي.

---

[1] حليفي (شعيب): الرحلة في الأدب العربي، ص238.

[2] هنري باجو(دانييل): الأدب العام والمقارن، ترجمة غسّان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997، ص92.

ويذهب إلى أنّ الصورولوجيا هي"علم يهتّم بمعرفة الصورة الذهنية التي يشكلها شخص عن نفسه وعن الآخرين"[1] ونلمس في هذا التحديد أنّ الصورة ترتبط ارتباطا وثيقا بانطباع صاحبها ولعلّ هذا ما حدا بالباحث (غنيمي هلال) إلى وصف الصورة بأنّها "انطباع في خيال الكاتب نتيجة لما رأى في أسفاره من مظاهر طبيعية وآثار فنية وعادات وتقاليد قومية" [2] ومعنى ذلك أنّها ذاتية ترتبط بالأديب ولهذا تختلف الصور من أديب إلى آخر تبعا لاختلاف الرؤى والتوجّهات وثقافة هذا الأخير فالصورة كما تشكلت في رحلة ابن فضلان تبدو مغايرة للصورة عند العبدري أو ابن جبير أو ابن بطوطة بل إنّها بتعبير الباحث (شعيب حليفي)"جزء من مادة الأسلوب، وأثر لغوي يرسم مسار الحكي والوعي، لا يتشكل إلاّ بتلاقحه مع آثار وصور أخرى خلفية تحيى داخل السرد والوصف، وتتخلّق داخل النسيج العام للدلالة، تبلور أهم القضايا في النص باعتبار الصور مرتبطة ومتفاعلة مع كافة العناصر الأخرى البؤرية، فتصبح قادرة بشكل عملي على أن تدثّر أي موضوع ، وتعمل على التوجيه والتأثير، وهي تتسع وتتوغل في ثنايا الموصوفات والتمثيلات، فتشمل كل المكونات النصية لتصبح الرحلة مرصدا لإنتاج الصور المتجانسة، وغير المتجانسة، الحية، والدينامية، والأخرى الجامدة غير المؤثرة أو ذات الفاعلية، لأنّ مسألة ترابط النص ككلّ يفضي إلى تنوّع هذه الصور ووضوحها باعتبارها خلاصات لتجارب ذاتية وغيرية روحية أو فعلية من السماع والمشاهدات والتخيّل والاحتمال والتخمينات، يُعادُ إنتاجها وصوغها ذهنيا باعتبارها أثرا وطروسا تخضع للعيش من جديد في الخيال ثمّ في اللّغة والكتابة "[3].

ولهذا تختلف الصور من باحث لآخر من حيث الالتباس والوضوح والمطابقة والتحريف أي أنّ حضور هذه العناصر في هذا النص أو ذاك يكون بنسب متفاوتة فقد تكون الصورة التي يرسمها هذا الباحث واضحة ومطابقة للواقع كما قد نجد

---

[1] المرجع السابق، ص92.

[2] غنيمي هلال(محمد): الأدب المقارن، ص320.

[3] ينظر حليفي(شعيب): المرجع السابق، ص 284.

الصورة التي يرسمها آخر فيها لبس وتحريف بل إنّ كثيرا من الصور يستند فيها أصحابها إلى الخيال ممّا يفقدها سمة الواقعية غير أنّ الرحلات تنفرد عن بقية النصوص في كونها ترسم صورا واقعية لمشاهد حيّة يراها الرحالة بأم عينيه وينفعل بها فينقلها بكل صدق وموضوعية .

ويرى الباحث (عمر بن قينة) أنّه" قلّما تكون الصورة صادقة وأمينة في تعبيرها عن طبيعة البلد ونفسية ساكنيه، بل كثيرا ما تختلط الحقائق فيها بمزاعم لا أصل لها"[1]، كما تتسم الصورة بطبيعة العلاقة التي يقيمها الكاتب مع المحيط ومع النّاس فقد تكون علاقة محدودة في إطار ضيق مع أشخاص من طبقة معينة فتنخفض درجة الصدق ، وقد تتسع في إطار عام بمخالطة مختلف الفئات فيرتفع حظ الصدق في ذلك.

ومن هذا المنطلق يمكن القول بأنّ المشاهدة هي الأساس في نقل صورة عن مجتمع أو مكان، وتتجلّى هذه الصورة في أدب الرحلة قبل غيره، فتبرز في الرحلة لعَينِ الكاتب الألوان المحلية واضحة كما تظهر أنواع السلوك والتّفكير والحياة فيكون التعبير في الرحلة وصفا وقصا وسردا وتحليلا وتعليقا وشرحا أيضا أدوات متعاضدة أو متقاسمة الأدوار بين الرحلات أو في الرحلة الواحدة لتكوين صورة ما، حيث تلعب الاستجابة للمؤثر في نفس الكاتب دورا أساسيا في بناء الصورة سواء كانت تلك الصورة إيجابية أو سلبية .

والواقع أنّ تصوير الكتابات والآداب للأماكن والشعوب ليس جديدا، لا في الآداب الأجنبية ولا في الآداب العربية، إنما الجديد أنّ الموضوع نفسه يعدّ " أحدث ميدان من ميادين البحث في الأدب المقارن، إذ ترجع أقدم البحوث فيه إلى أكثر من ثلاثين عاما"[2] ونستشف من هذا الكلام أنّ الأدب المقارن هو مجال الصورة وحقل اشتغالها فهو يسعى دائما للمقارنة بين صور الشعوب والبلدان المختلفة كما يسعى

---

[1] بن قينة (عمر): الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر، ط1، 1995، ص 110.

[2] غنيمي هلال (محمد): الأدب المقارن، ص331.

لتصوير النماذج البشرية للأشخاص بمعنى أنّه يدرس صور وسلوكات الإنسان وبهذا فإنّنا نجد حقل الصورة تتقاسمه وتشتغل عليه مجموعة من الاختصاصات وإذا كان الأدب المقارن واحد من هذه الاختصاصات فإنّنا نرجح اقتراب هذا الحقل كثيرا من أدب الرحلة على اعتبار أنّ الرحالة يمتلك حرية كبيرة في التصوير حتى غدت الرحلات صورة عن أصحابها وعن الشعوب التي قصدوها.

ويتّفق مع هذا الرأي ما جاء به الباحث **(شعيب حليفي)** الذّي رأى بأنّ "علم الصورة يجد مرتعا حقيقيا لاستنبات وإنتاج الصور في النصوص الرحلية، حيث تشكّل الصورة موضوعة في تمثيل الأنا والآخر" [1] لأنّ الرحالة وهو يسافر من بلد إلى آخر فهو يشاهد ويسمع ويصور كلّ تلك المشاهد التي صادفها في طريقه والغرائب التي أثارت انتباهه .

ومهما يكن من شيء فإنّ هذه الملاحظات في مطلع هذا الفصل لا تزعم لنفسها في شيء تنظيرا للصورة، ولا حصرا لتعاريفها وأنواعها، بل هدفت إلى تحديد ملامح عامة عن مجال الصورة كمدخل لصورة المغرب والجزائر في رحلة ابن حمادوش الجزائري خلال القرن الثامن عشر.

[1] حليفي (شعيب): الرحلة في الأدب العربي، ص 283.

1- صورة المغرب :

لقد انعكست صورة المغرب خلال القرن الثامن عشر بصورة واضحة في رحلة ابن حمادوش ومن مظاهر هذا الانعكاس ما ورد في رحلته من اهتمام بكلّ مظاهر الحياة بما في ذلك الجانب الاجتماعي والسياسي والديني والأخلاقي والثقافي الأمر الذي يجعل قارئ هذه الرحلة يتصوّر هذا البلد كما لو أنّه زاره وعايش الأحداث التي وقعت فيه، خاصة وأنّ ابن حمادوش قد ذكر في أكثر من موضع في رحلته بأنّه عاصر تلك الأحداث مما يؤكد مصداقية الحكي وفعلية المشاهد.

أ- الحياة الاجتماعية :

لقد ركّزت الرحلات عموما ورحلة ابن حمادوش على وجه التحديد على إبراز العلاقة بين المكان والإنسان، فرسمت صورا للحياة الاجتماعية، وألقت الضوء على كلّ ما لفت انتباه الرّحالة من أحوال المعيشة.

والحقّ أنّ القارئ لرحلة ابن حمادوش يجدها تصوّر أهمّ المحطات في حياة الإنسان من ميلاد وزواج وموت، وكلّ ما ارتبط بهذه المناسبات من مظاهر اجتماعية واحتفالات بالمناسبات السعيدة أو الحزينة، وما يرافقها من العادات والتقاليد والمعتقدات التي اتّفق بعضها مع معتقداتنا في الجزائر في ذلك الوقت واختلف بعضها الآخر عنها ولعلّ مرّد ذلك راجع إلى اختلاف البنية الثقافية للمجتمع كما أنّ لكلّ بلد خصوصياته وتقاليده التي يتفرّد بها عن غيره من الأقطار.

والواقع أنّ ما قدّمه ابن حمادوش في رحلته أشبه ما يكون بمزيج بين الرحلة والإثنوغرافيا التي "تسعى إلى تقديم توصيف موضوعي للشعوب وعاداتها وتقاليدها وأخلاقها وطريقة لباسها وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية" [1]، فقد اتجه الرّحالة إلى استخلاص أسلوب الحياة في البلد الذي قصده، وهو المغرب من خلال استقراء وتحليل القيم والأفكار والجوانب المادية أو الرّوحية التي تشكّل بدورها الأسلوب الحياتي للناس ومعالمهم التراثية.

---

[1] الشوابكة عبد الرحمن(نوال):أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتّى نهاية القرن التاسع الهجري، ص160.

العادات والتقاليد والملابس:

روى ابن حمادوش كثيرا من عادات وتقاليد ولباس أهل بلاد المغرب في الفترة التي نزل فيها بهذا البلد كحديثه عن عادة فرض المكوس * بتطوان في قوله:" وكانت عادة قبيحة بتطوان ابتدعوها، إنّهم يأخذون كلّ ما معك ويحملونه إلى دار العشر(الجمارك) ثمّ بعدما تنقضي أشغالهم من البحر تأتي العدول ** التي كتبت في البحر فتقابل كتابها مع العدول الذين بدار العشر ثمّ يدفعون ما لا منفعة لهم فيه ثمّ يتخلّصون إلى أكل أموال النّاس بالباطل، فيفتحون كلّ ما معك ويأخذون خمسة لكلّ مائة مكساً، وتدفع من يدك زائدا على الخمسة أجرة العدول والعساس والحمال..." [1].

وكان ابن حمادوش كثيرا ما يبدي تذمّره من هذه العادة التي اعتبرها أهل المغرب وكأنّها سنة واجبة يحقّ دفعها .

ويبدو أنّ فرض الدولة للمكوس بهذا الشكل مرده إلى التدهور الاقتصادي وتدني المستوى المعيشي فلم تكن الدولة تجد ما تعوض به عجزها غير فرض هذه الضرائب على الشعب خاصة وأنّ ابن حمادوش قد ذكر في رحلته ما كانت تعاني منه البلاد من قحط وغلاء نتيجة قلة الأمطار هذا فضلا عن انتشار الأمراض والأوبئة كمرض الطاعون الذي كان ابن كرشال أحد ضحاياه وفي هذا يقول ابن حمادوش:" وكنت تعبت في المغرب من مرض وخسارة وضيق، ولم أر قط ما رأيت فيه من ضيق العيش والخسارة، والعياذ بالله، حتّى أيقنت على الهلاك"[2].

---

* المكوس: هي ضرائب إضافية نشأت عن حاجات وظروف جديدة اضطرت الدولة إلى فرضها، ويقال بأنّ كلمة مكس من أصل أرميني استعملها اليهود بمعنى واجبات، دفع، ضرائب،ويرى البعض أنّ المكس هو دراهم تؤخذ من بائع السلع في الأسواق، وأصل المكس في اللّغة الجباية . ينظر الجحمة (نواف عبد العزيز): رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربي من القرن السادس إلى الثامن، دار السويدي، الإمارات العربية المتحدة، ط1،2008، ص250.

** أي مفتشي البضائع أو الجمارك.

[1] ابن حمادوش(عبد الرزاق): الرحلة، ص 31.

[2] المصدر نفسه، ص 115.

وتعدّ زيارة الأضرحة والتّبرك بهم وأخذ العهد منهم من بين العادات الاجتماعية التي كانت تجري عند المغاربة وقد عثرنا في الرحلة على وصف لزيارة قام بها ابن حمادوش إلى ضريح أحمد الريفي حيث قال:" وفي يوم الخميس ذهبت لزيارة علي الريفي راجلا فقطعت واد الكيتان إلى أنصاف فخذي، وهو واد عظيم من أفضل المياه، فبلغت له ضحاء*، فلقيني خادمه وسلم عليّ وأدخلني قبة قبر الشيخ فأجلسني عنده وذهب فبقيت إلى قرب الزوال، إذا بعبد الجليل، بن عبد اللطيف الذي كان تولى أمور الحاج عبد القادر بعد موته في المركب لقرابة بينهما قدم علي راكبا فدخل القبة، فوجدي جالسا فسلم عليّ وجلس زمانا يسيرا، إذا بخادمه المذكور، واسمه سيدي علي الريف، دخل فسلّم علينا وسلّمنا عليه وقبلنا يده لما كنا نعتقد فيه وكان رجلا حلوا كأنه أحيانا يصادف بقوله ما يضمره الزائر، وعقد بيني وبينه عهدا ولم أدر ما ذاك..."[1] ويبدو أنّ استخدام ابن حمادوش لمثل هذه العبارات (قبلنا يده لما كنا نعتقد فيه، وحديثه عن المضمرات وأخذ العهد) نابع من خلفية ثقافية ودينية معينة لها ارتباط بالمجتمع الذي عاش فيه تلك الفترة .

ويعتبر حصاد الشعير في شهر أفريل من العادات التي أثارت استغراب ابن حمادوش حيث قال:" من غريب ما رأيت في هذا الطريق قرب المرج الطويل، وجدتهم يحصدون الشعير في خامس أبريل"[2].

ومن العادات القبيحة التي لاحظ ابن حمادوش انتشارها في المغرب ظاهرة تفشّي الفساد الاجتماعي والأخلاقي التي تجري بالفنادق المغربية حيث روى سلوك إحدى النسوان اللواتي يتاجرن بشرفهن في سبيل الحصول على المال وأبدى تذمره وتأسفه من مصادفته لمثل هذه الأمور في قوله: "فلما هدأت الأصوات وصرنا كالأموات وتوغلت في حبائل النوم ولم أدر ما هنالك من القوم فلم يوقظني إلاّ جلبة

* أي وقت الضحى.

[1] ابن حمادوش(عبد الرزاق): الرحلة، ص 33.

[2] المصدر نفسه، ص74.

الأصوات وتداعي القينات والتدافع بمنع وهات وبعض هاد وبعض عات وإذا بجاري بيت بيت يحاسب قينة على كيت وكيت وهي تقول فعلت كذا كذا فعله وتدفع أجر فعله..."[1].

ومن العادات القبيحة أيضا ما رواه ابن حمادوش عن سكان المغرب حيث قال:" من أقبح ما في المغرب كله حماماتهم ويبدون عوراتهم فيها ومنها نحو ربع البلد جنات معروشات ... فيها ثلاثة جداول ماء أحدها كبير أقمنا فيه سبعة أيام بسبع شياه ومنها أنّ الزرزور ساكن فيها في أركانه كالبرطا ل يبيض بيضا رقيقا طويلا بين الزرقة والخضرة زنجاري وكذا في مكناس وصوامعها مسكونة بالشقشاق المسمى عندنا باللاّرج يبيض ويفرخ وأنّ طير أبابيل فيها بخلاف تطوان فإنّهم لا يعرفونه"[2] .

الملاحظ في هذا النص أنّ ابن حمادوش لم يكتف بالحديث عن سلوك الأشخاص الذين يرتادون على هذه الحمامات بل نجده يصف بناءها وجداولها والطيور التي تسكن في أركانها الأمر الذي يجعلنا ندرك دقة الرحالة وحرصه على ذكر كلّ التفاصيل المتعلقة بالمكان الذي يتحدّث عنه .

ومن العادات التي أثارت انتباه ابن حمادوش واستغرابه أيضا تلك العادة التي ألفها أهل تطوان حيث كانوا يصنعون قوارب من حبال الدوم يصطادون بها ويحملون فيها أغراضهم يقول ابن حمادوش:" ومن غرائب ما رأيت أنّ في هذا المرج قوارب يصطادون بها السمك والطير والبيض، ويتعدّون عليها من ناحية إلى أخرى، ويحملون عليها أحمال الزّرع وغيره، وهي من حزم البردي، يعقدون حزمة بحبال الدّوم الرقاق ويجعلونها وسطا، ويعقدون حزمتين يجعلون من كل ناحية واحدة عالية يمينا وشمالا، ووسطها منخفض، ويحملون ذلك بالربط من مقدمها، ويشدون ربط الكلّ ، ويركب فيها ويمسك في يده عودا طويلا يكتّد به ولا يقذف ... ولا يوضع

---

[1] المصدر نفسه، ص79.

[2] المصدر نفسه، ص94.

تحته لا قرع ولا قرب بخلاف ما يوجد في النيل فإنّه لا يبلغ هذه الصحة" [3]. ونلمس من خلال هذا الكلام أنّ هناك عادات أخرى مارسها أهل تطوان كصيدهم للسمك مثلا واهتمامهم بالزراعة .

وقبل أن نتحدّث عن اللباس ارتأينا أن نشير إلى قول مفاده أنّ:" اللّباس والمطبخ لغات رمزية أخرى ضمن مجال الصورة أي ضمن العالم الرمزي الذي سمي خيالا اجتماعيا لأنّه لا ينفصل عن تنظيم اجتماعي وثقافي... وكلّ من يهتّم بالصورة يعلم إلى أيّ حدّ يشكّل المسكن والمنزل والمطبخ عناصر مهمة للصورة" [1] ولهذا خصصت السيميولوجيا اهتماما بالغا بالألبسة على اعتبار أنّها علامات دالة .

ولهذا لم يغفل ابن حمادوش حديثه عن الملابس، فقد حفلت رحلته بالكثير من الإشارات إليها حيث نجده يذكر بأنّ لكلّ طبقة هندامها الخاص بها وربّما دلّ تنوّع تلك الألبسة واختلافها وتفاوتها بين طبقة الحكام وطبقة عامة الشعب على الحالة الاقتصادية والوضع الاجتماعي في تلك الفترة.

وإذا كانت النّساء تتفاخرن بإظهار زينة لباسهن في مختلف المناسبات والأعياد فإنّ الرجال أيضا كانت لهم عاداتهم الخاصة فقد كانوا يتّخذون من لباس النسوة مظهرا لإبراز الفرحة وهو الأمر الذي وصفه ابن حمادوش في قوله:" ثمّ أنّ البلاد فرحت كلها وازّينت يوم الخميس، إلاّ أنّ زينتهم بثياب ملبوس النساء، يعلقون القفاطين والمحارم وغيرها من خروم حرير وما تيّسر، بخلاف زينة بلادنا" [2] ونلحظ من خلال هذا الكلام أنّ الرحالة يحاول المقارنة بين أنواع التزين في كلّ من المغرب والجزائر ولكنه لا يذكر أنواع التزيّن في الثانية ولا وجه الاختلاف في ذلك.

ويذكر ابن حمادوش في سياق حديثه عن لباس أهل فاس قولا مفاده أنّ" رجالها لا يتعمّمون إلاّ القليل وأنّ نساءها لهم عمائم كبار، تصنع من الحرير يبلغ طولها حوالي

---

[3] المصدر نفسه، ص74.

[1] هنري باجو(دانييل): الأدب العام والمقارن، ص103.

[2] ابن حمادوش(عبد الرزاق): الرحلة، ص94.

ثمانية عشر ذراعا قياسا بذراع بني آدم المعلوم في الأسواق وأكثر أمّا وصفه للون هذه العمائم فقال بأنّ لونها إمّا أبيض أو نصفه زبيبي ونصفه عكري، أو يتعممون بالشاش الهندي..."[1] ونلمس في هذا الكلام دقّة ابن حمادو ش في الوصف فهو يذكر نوع اللّباس وطوله ويفصل في ذكر ألوانه المختلفة بل ويقارن بين لباس الرجال والنّساء.

ولم يقتصر وصف ابن حمادوش للباس على العامة من الرجال والنساء فقط بل وصف لباس الملوك والسلاطين أيضا كما هو ماثل في قوله" وبعدهم السلطان عليه ظلّة بيد رجل يحملها، قيل أنّها مرصعة بالياقوت وهو لابس كلباس أهل مكة من الدّيباج بين الحمرة والبياض، وعمامته كعمامة أهل مكة مائلة إلى السواد" [2] ويقدّم ابن حمادوش كذلك وصفا للباس بعض الجنود الاستعراضيين الذين قال بأنّهم" يرتدون القشاشب البيض"[3] .

وإن كان ابن حمادوش قد أفاض في وصفه للعادات والتقاليد والألبسة فإننّا نجده لم يتحدّث كثيرا عن الأطعمة باستثناء ما ورد في ثنايا رحلته من إشارات مفادها "أنّ من عادات أهل فاس يوم العنصرة * أنّهم يأكلون هشيم أذناب الضّأن بالقرفة والكسكسي"[4]. ويبدو أنّ ارتباط هذا النوع من الطعام بيوم العنصرة كما سماه ابن حمادوش نابع من اعتقادهم بحصول المنفعة الصحية في ذلك.

وفي سياق حديثنا عن الطعام لفتت انتباهنا ظاهرة استغربناها كثيرا صادفها ابن حمادوش وهو في طريقه إلى تطوان وهي تتعلّق بأكل بعض أناسها للحم القطط وهو ما وصفه لنا الرّحالة بشيء من التفصيل في قوله:" وكنا اشترينا كبشا فطبخه الحمارون وأكلنا وحمدنا الله وبقي هناك فضلاته ففي نحو مضي من اللّيل ربعه جاءت هرة تأكل ممّا هناك فرآها بعض الحمارين، وكانت جماعة قليلة، فرماها

---

[1] ابن حمادوش(عبد الرزاق): الرحلة، ص 95.

[2] المصدر نفسه، ص96.

[3] المصدر نفسه، ص96.

* وتعني فورة الحرارة صيفا.

[4] المصدر نفسه، ص94.

بمكحلة(بندقية) فأَرْدَاهَا بحبَّتِها وأخذها وذبحها وسلخها، فكانت كلها شحما من شدّة السمن وأمعاءها كأمعاء بني آدم واحد. وليست هي وحشية ولكنّها إنسية في الغالب، فطبخوها وأكلوها ونحن ننظر" [1] ويبدو أنّ هذه الأمور بعيدة عن عاداتنا وتقاليدنا، ولعلّ استخدام ابن حمادوش لعبارة(ونحن نظر) تضفي على قوله مصداقية أكثر.

أمّا الجنازات فكان لها ترتيباتها الخاصة عند أهل المغرب فقد ذكر ابن حمادوش وصفا مستفيضا لجنازة ابن المبارك وكلّ ما يتعلّق بذلك من مراسيم الدفن وغيرها من الأمور حيث يقول:" ليلة الجمعة قبل طلوع الفجر بنحو ساعة أو أكثر مات ابن المبارك رحمة الله فغسل وكفن وصنعت عليه قبة فوق النّعش كما يفعل بالنّساء وحمل إلى جامع القرويين، فصلى عليه قاضي الوقت، وهو من تلاميذه، وهو الإمام بعد صلاة الجمعة وحمل إلى خارج باب الفتوح فدفن في قبة فيها قبر سيدي عبد العزيز الدّباغ الشريف وكان من أولياء الله الصالحين، وحضر جنازته خلق كثير، حزرتها عند رجوعهم، تقرب من ألفي رجل وخمسين امرأة ، وبعد وضعه في قبره كسرت العامة نعشه وأخذوه قطعا فمنهم المقلّ ومنهم المكثر حتّى أنّ بعضهم أخذ كالخلال* ... وقال لي عمّه: بتنا على قبره ليلة والطلبة كثر فقرأنا عليه ختمتين من القرآن العظيم، وقلت في نفسي لعلي أراه، قال فنمت فإذا برجل جلس معي وقال لي: لن تر الشيخ الليلة ، فإنّ أرواح النّاس يذهبون إلى النّبي ويرجعون من حينهم، وروحه بقيت عنده إلى الآن، وإنّ الصالحين مشتبكون في أمره متحيرون، لأنّ عادتهم إذا مات ولي أخذوا من سائر النّاس وجعلوه موضعه، وأمّا إذا مات ولي عالم تحيّروا فيمن يأتوا به موضعه" [2]. وإن كنت قد أطلت في اقتباسي لهذا النص لما رأيت فيه من اهتمام كبير من طرف الرحالة بتتبع كلّ المراحل لإعداد الميت قبل الدفن وبعده وهي تفاصيل حية قد لا نجدها ربما في كتب أخرى وهي تنبئ بلا شكّ

---

[1] ابن حمادوش (عبد الرزاق): الرحلة، ص99.

* أي قطعة صغيرة من الخشب في حجم الأصبع أو أقل.

[2] المصدر نفسه، ص86.

بقدرة الرحالة على التقاط مختلف المواقف سواء كانت حزينة كهذه أو سعيدة ممّا يجعل قارئ الرحلة يشاركه في ذلك ويتصور كما لو أنّه حاضر في هذه الجنازة ومشارك فيها.

ولعلّ ما يلفت الانتباه في هذا النص هو مشاركة المرأة وحضورها في الجنازات وهو أمر إن دلّ على شيء فهو يدلّ على حرية هذه الأخيرة فقد كانت تختلط مع الرجال دون أن تبدي في ذلك أو يبدي أهلها عيبا ولا تحرّجا .

ويعتبر عيد الأضحى وعيد الفطر وعيد المولد النبوي من أهم الأمور التي لفتت انتباه ابن حمادوش لما ارتبط بها من مناسبات وتقاليد لها ارتباط بثقافة أهل المغرب منها ما كانوا يفعلونه أثناء عيد الأضحى حيث وصف الرحالة ذلك في قوله:" وفي يوم السبت صنع عيد الأضحى بغتة، كان مطر غزير وسحاب ليله ونهاره إلى الضحاء أتت بينة من طنجة فصنع العيد وذهبنا إلى المصلى فخرج قائدهم في جماعته وبين يده حربة عالية طويلة جدا وأمامه نحو المائتي مسخر حاملة المكاحل كلها وهم يرمون ومعه نحو الخمسة فرسان أو نحوها، فصلينا والمطر نازل علينا، خارج البلد، وخطب بنا إمام نسيت اسمه، هو عظيم جامع القصبة، وكان خطيب جامع الباشا في حياته، ما رأيت فيما رأيت غير الشيخ زيتونة مثله، جمع فيها مواعظ ورقائق وبشائر وتحذير وأغرى وأمر ونهى وغير ذلك مما يفعل في الأيام والطرق وغير ذلك أطال وأجاد وأبلغ فأفاد، جزاه بخير رب العباد، فرجعنا ومؤذن الزوال يؤذن ولو لم يكن المطر لأذن ونحن بالمصلى"[1].

ومما جاء في وصف ابن حمادوش لعادة الفاسيين في المولد النبوي قوله:" وفي ذهابي له (يقصد للاحتفال) لقيت الطبّالين والعياطين وآلات الطرب كلها في السوق ذاهبين بأربعة قباب من شمع كل واحدة من لون أحدها خضراء وأخرى بيضاء وأخرى حمراء، والرابعة نسيت لونها، أخف ممّا يجعل عندنا في الجزائر"[2] .

---

[1] المصدر نفسه، ص107.

[2] المصدر نفسه، ص84.

وصفوة القول تتجلى في أنّ رحلة ابن حمادوش استطاعت أن ترسم لنا صورة حيّة عن حياة أهل المغرب وإن انطبعت برؤية صاحبها إلاّ أنّها كانت بمثابة السجل الاجتماعي الذي لا يمكن للدارسين الاستغناء عنه في دراسة المجتمع المغربي خلال القرن الثامن عشر فهي تتناول الحياة بكلّ ما فيها فقد ذكر فيها العادات والتقاليد الخاصة بالمناسبات السعيدة وأخرى مرتبطة بالمناسبات الحزينة كالجنازات ووصف فيها المأكل والملبس وغيرها من الأمور التي يتعذّر على الباحثين في علم الاجتماع العثور عليها في مؤلف آخر ولعلّ هذا ما يزيد الرحلة أهمية ويضفي عليها قيمة.

ب- الحياة السياسية:

من أهّم الحوادث السياسية التي ذكرها ابن حمادوش في رحلته بشيء من التفصيل **ثورة أحمد الريفي** باشا تطوان على السلطان عبد الله سنة (1156هـ/1743م) ويرجع الباحث أبو القاسم سعد الله اهتمام ابن حمادوش بهذه الحادثة إلى "أنّه كان شاهد عيان لآثارها وراوية لأخبار استقاها عنها من مشاهدين أيضا بينما كانت ما تزال ساخنة، كما يرجع اهتمامه بهذه الثورة أيضا إلى سوء معاملة رجال الريفي له عند نزوله بمرسى تطوان فقد اشتطوا في نظره في طلب المكوس منه على سلعته التي جاء بها من الجزائر"[1].

ولم يكن موقف ابن حمادوش من الريفي موقف المؤيد، فهو يعتبر نفسه رجلا شريفا بينما الريفي كان قد ادّعى الشرف وزهـا بنفسه وظنّ غلبة سيده (السلطان عبد الله) وفرض المكوس في تطوان وادعى السلطنة لنفسه، لكن المغاربة في نظر ابن حمادوش شعب لا يطيع إلاّ الشرفاء، لذلك رفضوا دعوى أحمد الريفي رغم استظهاره بحجة مزورة ، فلما لم يمكنه الوصول إلى السلطنة عن طريق الشرف انتصر للأمير المستضيء بنور الله ابن السلطان إسماعيل، وحاصر مدينة فاس.[2]

---

[1] ينظر سعد الله (أبو القاسم): أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص 237،وينظر أيضا الطبيب الرّحالة ابن حمادوش الجزائري حياته وآثاره، ص 70.

[2] ينظر ابن حمادوش (عبد الرزاق): الرحلة، ص 75.

وقد كان مصيره الهزيمة والقتل على يد جيش السلطان عبد الله وكان هذا الحادث فرصة لابن حمادوش في تهنئة السلطان بهذا الانتصار بقصيدة كنا قد أشرنا إليها في حديثنا عن شعره، وقد عرفنا أنّه لم ينجح في الدخول بها على السلطان، ووصف ابن حمادوش الغنائم الكبيرة التي حصل عليها السلطان عبد الله نتيجة هذا الانتصار والتي تمثلت في الذّهب والسّيوف والأموال والبغال وبعض الأثاث، واعتبر ابن حمادوش مقتل الريفي من الألطاف التي حلّت بهذه البلاد وإلاّ فقد اشتد بها الخوف والحبوب زيد في سعرها كما ذكر لنا بعض نتائج هذه الثورة التي مات فيها ما يربو على أربعة آلاف. [1]

وكان وصف ابن حمادوش لآثار هذه الحادثة وصفا مؤثرا فالعرب قد تهيّئوا لأكله –على حد تعبيره – هو وأصحابه لأنهم ألفوا الفتنة والهرج وكاد يقع فريسة بين أيديهم لولا نسبه الشريف وكانت العرب وهو لا شكّ يقصد الأعراب أو أهل البادية تقول إن الوقت لا سلطان له فمن فعل شيئا فاز به ودعا ذلك الفوضى بعينها . وتحدّث خاصة عن الهرج الذي وقع بين العرب والوداية حينما قطعت السبل بين فاس البالي والجديد .[2]

وتعرّض هو ورفاقه أثناء ذلك إلى الإهانات البالغة التي وصلت إلى حد انتزاع عمائمهم، وحتّى أصبحوا يشعرون أنّهم كانوا بثغر من الخوف. كلّ ذلك والسلطان في هذا كله لم يغضب ولم يسلم من حكم المؤلف القاسي لا السلطان ولا العرب ولا الوداية فالأول كان يشاهد هذه الفوضى دون أن يتّخذ إجراء لوقفها، وكان حجابه غلاظا شدادا لم يسمحوا لابن حمادوش بتقديم القصيدة التي أنشأها فيه بين يديه والعرب قد اعتادوا الفتنة والفوضى أما الوداية فقد طلب إليهم لعنة الله ومن الحوادث الخاصة بالمغرب أيضا ما جاء في الرحلة من هروب عبد الواحد بن أحمد الريفي إلى الجزائر فرارا من السلطان عبد الله .[3]

---

[1] ينظر المصدر نفسه، ص 91.

[2] ينظر المصدر نفسه، ص 91.

[3] ينظر المصدر نفسه، ص95.

ج – الحياة العلمية والثقافية:

لقد كان غرض ابن حمادوش من زيارته للمغرب هو طلب العلم فلا غرو إذا أن يبدي في رحلته اهتماما بالغا بالحياة الثقافية وبالعلم والعلماء فقد ذكر في رحلته أنّه كان كثير المطالعة في كتب الحديث والأسانيد وكتب الطب وأنّه كان ينسخ الكتب ويتجادل مع علماء عصره في بعض المسائل كمسألة الفرق بين الحق والواجب وبعض مسائل الميراث وحلّ الألغاز التي تعتبر من أهم الرياضات الفكرية التي كان يجري تداولها بين العلماء في ذلك العصر.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا النص الرحلي يزخر بتراجم مشاهير رجال العصر من العلماء الذين قابلهم ابن حمادوش أو أخذ عنهم أو سمع منهم وعددهم كثير ضمّنهم في هذا الجزء من رحلته، ويستطيع الباحث لهذه الرحلة أن يستنتج معلومات جمة عن الحياة الثقافية والفكرية في المدن التي قصدها الرحالة وهي تطوان ومكناس وفاس كما يستطيع التعرف على تراجم الشيوخ والعلماء الذين يمثلون حجر الأساس في البيئات الفكرية، وأهم المسائل العلمية التي كانت تشغل المجتمعات الثقافية في ذلك العصر والإجازات والأسانيد عن طريق الرواية أو السماع .

ومن أهم العلماء المغاربة الذين ورد ذكرهم في الرحلة" محمد بن عبد السلام البناني الذي حمل إليه ابن حمادوش أمانة من الجزائر وحضر دروسه وأجازه البناني على ذلك،وكان البناني أيضا يدرس صحيح البخاري أما مسمعه فيه فقد كان محمد بوزوبع التلمساني وقد استعار ابن حمادوش فهرس البناني الذي يبلغ كراستين وكتب أغلبه في الرحلة آتيا على ذكر ستة عشر شيخا من شيوخ البناني مع تفاصيل في الكتب المقروءة والأسانيد المروية، وهؤلاء هم محمد ابن عبد القادر الفاسي، أحمد بن العربي بن الحاج، محمد بن أحمد القسنطيني المعروف بالكماد، والعربي بن أحمد بردلة، والحسن اليوسي، وبومدين المكناسي، وعبد السلام القادري، وعلي بن محمد بركة التطواني، وسعيد الحميري، ومحمد بن أحمد المسناوي الدلائي، وعبد الملك التجمعوتي، وأمحمد بن محمد الناصر الدرعي، وأحمد بن يعقوب، ومحمد بن عبد

الرحمن التّازي، ومحمد الطيب بن محمد الفاسي، ومحمد بن الصغير، ومحمد بن قاسم بن زاكور" .[1]

وكما درس على الشيخ البناني وأجازه درس أيضا في تطوان على الشيخ أحمد الورززي في جامع لكاش وأجازه بكلّ مروياته . وكان ابن حمادوش قد دخل في مناقشة مع شيخه حول مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء والعكس وموقف أهل السنة والمعتزلة منها. وانتهى به الأمر إلى أن اعتبر شيخه الورززي قد تدخل من أجله لدى سلطات ميناء تطوان حتّى أعفوه من المكوس. كما أنّ العلاقة بينهما ازدادت تمكنا أثناء زيارة الشيخ الورززي لعاصمة الجزائر خلال شهر رمضان سنة 1159.[2]

ودرس ابن حمادوش أيضا على الشيخ أحمد السرايري وبالخصوص ألفية العراقي وكان قد نزل عنده في فندقه قبل توجهه إلى مكناس وفاس. وعند العودة إلى تطوان وجد شيخه السرائري قد توفي . ومن أهل العلم بتطوان الشيخ عبد الله جنان الذي أورد له ابن حمادوش قصيدة طويلة في مدح تطوان وأهلها ووصف حالته وكان عبد الله جنان قد تتلمذ على يد ابن حمادوش قبل رجوعه إلى الجزائر.[3]

وقد أشار ابن حمادوش في رحلته إلى أنّ علماء تطوان لا يتقنون علمي الفلك والطب في قوله:" وسألت عن علم الفلك فلم يكن له متقن ... وأما في الحساب والطب والهندسة فلم أر من يبحث عنها فضلا عن من يتقنها" [4] . ويبدو أنّ اهتمام المغاربة بالحديث والفقه شغلهم عن التفكير بهذه العلوم.

أما علماء مكناس فقد لقي الشيخ عبد السلام القباب مؤقت جامع النجارين والشيخ عبد القادر الفاسي مؤقت الجامع الكبير ولكن خاب ظن ابن حمادوش في الشيخين فقد وجد الأول لا يحسن سوى علم التوقيت، وكان الفاسي أعلم منه به

---

[1] ينظر ابن حمادوش (عبد الرزاق): الرحلة، ص40،41.

[2] ينظر المصدر نفسه، ص65.

[3] ينظر المصدر نفسه، ص67.

[4] المصدر نفسه، ص 71.

غير أنّ الفاسي كان مشغوفا بالأحكام بدل التوقيت [1]، ولا شكّ أنّ مكناس كانت عامرة عندئذ بعلماء أجلاء لم يذكرهم ابن حمادوش. ونحن لا ندري كيف كان ينتقي هؤلاء العلماء، ولكن الظاهر أنّه كان يسأل عنهم أو يتوجه إلى المساجد حيث الدروس والمناظرات، ومن هناك بدأت الصلات بينه وبينهم.

وفي مدينة فاس التقى ابن حمادوش بعدد من العلماء الذين أعجب ببعضهم كما انتقد آخرين منهم ومن القسم الأول الحكيم عبد الوهاب أدراق * طبيب السلطان إسماعيل وذريته وقد أثنى عليه نثرا وشعرا وخصه بقصيدتين ووصف قصره وطريقة استقباله للزائرين والمرضى ومداواته وأخبره إنّما جاء إليه ليستفيد من علمه، وقد كانت أغلب المجالس التي تعقد بين العلماء تجري إمّا في المساجد أو الفنادق أوفي بيوت هؤلاء العلماء.

وممآ سبق نستشف أنّ ابن حمادوش كان على اتصال وثيق مع العلماء ومن هنا أخذ حديثه عنهم مساحة واسعة في رحلته فهو يتحدّث عن طرق رواياتهم وعن حالتهم في المجالس العلمية ومن هنا يمكن القول بأنّ ابن حمادوش كان مؤمنا بأنّ الرحلة في طلب العلم ضرورة حتمية لما فيها من الفوائد وفي ذلك يقول ابن خلدون:" إنّ الرّحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم، وذلك أنّ البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاءً، وتارة محاكاة ، وتلقينا بالمباشرة، إلاّ أنّ حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشدّ استحكاما، وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، فالرّحلة في طلب العلم لابد منها لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرّجال"[2].

---

[1] ينظر المصدر نفسه، ص77.

* عبد الوهاب أدراق(ت 1159هـ) من أبرز أطباء عصره ، له تآليف في الطب بعضها أراجيز. ينظر كنون (عبد الله): النبوغ المغربي ، ج1، ص290.

[2] ابن خلدون (عبد الرحمن): المقدمة، ص 82.

وبهذا فقد استطاع ابن حمادوش أن ينقل لنا من خلال رحلته صورة عن واقع الحياة الثقافية بالمغرب خلال القرن الثامن عشر وهي صورة قد يتعذّر على الباحثين الوصول إليها دون اللجوء إلى هذه الرحلة التي تعتبر بحق وثيقة هامة لا يمكن الاستهانة بها ولا التقليل من قيمتها .

2- صورة الجزائر :

تجدر الإشارة إلى أنّ أغلب الباحثين في أدب الرحلات قد أبدو اهتمامهم بدراسة صورة الجزائر في نظر الغير فهذا عبد الله الركيبي مثلا يكتب بحثا يسمه بـ"الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز"[1] ويقدم الباحث أبو العيد دودو بحثا بعنوان "الجزائر في مؤلّفات الرحالين الألمان"[2] كما نجد باحثا آخر يعنون دراسته بـ " صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسية"[3] ولكن قلّما يعثر الباحث على دراسات تتناول صورة الجزائر في نظر الجزائريين أنفسهم وكذلك هو الأمر بالنسبة للمغاربة حيث نجد بحوثا تتناول صورة المشارقة من خلال رحلات المغاربة ولكن لم نعثر على العكس من ذلك أبدا .

ومن هذا المنطلق تبادرت إلى ذهني مجموعة من التساؤلات منها لماذا لا ندرس صورة بلدنا كما هي في مصادر مؤلفينا؟ ولماذا ننظر دائما إلى أنفسنا بمنظار الآخر؟

وبعد قراءة فاحصة لرحلة ابن حمادوش تبيّن لي أنّها تحوي معلومات كثيرة حول الجزائر خلال العهد العثماني تؤهلها كي تعطينا صورة واضحة عن هذا البلد وأحواله الاجتماعية والدينية والسياسية والثقافية الأمر الذي ينفي الزّعم الذي تقدم به الباحث عميراني حميدة في بحثه الموسوم بـ" الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني" حيث وسم إحدى فصول دراسته بعنوان "صورة الجزائر في مصادر أوروبية" واستهله بقوله:" لم تكن صورة الجزائر في القرن الثامن عشر واضحة جيّدا، بفعل أنّ المصادر العربية والتركية كانت قليلة الأهمية في نظر الأوروبيين، ولكن

---

[1] ينظر الرّكيبي(عبد الله): الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز، المجلد الرابع، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2011.

[2] دودو(أبو العيد): الجزائر في مؤلفات الرّحالين الألمان، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1989.

[3] عطاشي(عيسى): صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسية" صيف في الصحراء لفرومنتين نموذجا، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2005.

أغلب ملامح هذه الصورة الكاملة لبلاد الجزائر رسمها الأوروبيون، سواء الرحالة منهم أو القناصل أو الأسرى"[1].

والحقّ أنّ هذا الحكم الذي أطلقه هذا الباحث على المصادر الجزائرية فيه نوع من الإجحاف وانتقاص لقيمة المصادر العربية الجزائرية في هذا الباب ومنها رحلة ابن حمادوش ورحلات أخرى كرحلة ابن قنفذ والونشريسي وغيرها من الرحلات التي يمكنها أن تطلعنا عن صور هذا البلد في تلك الفترة.

أ- الحياة الاجتماعية:

لقد شكّلت السجلات الاجتماعية في رحلة ابن حمادوش رافدا أساسيا ساهم في إغناء نصها وتوسيع أبعاده وتنويعها ذلك أنّ صاحبها تحدّث فيها عن كثير من الجوانب الاجتماعية والعادات والتقاليد التي تخصّ الجزائر بطريقة تنبئ بمقدرته على الوصف الحي ففاق اهتمامه بعادات البلاد وتقاليدها اهتماماته بالجوانب الأخرى. وهو الأمر الذي يؤكده الباحث شعيب حليفي في قوله:" أما الرحلات التي جابت العالم الإسلامي فقد اهتمت بهذا الجانب بمختلف مناحيه، حيث وقف الرحالة ابن حمادوش في رحلته على تسجيل الآثار الاجتماعية والدينية والتقاليد، وأيضا نوعية التطبيب(الطب الشعبي) والأوعاء والخرافات"[2] ونلمس من خلال هذا الكلام أنّ رحلة ابن حماوش يمكن لنا أن نعتبرها وثيقة اجتماعية وصورة لصاحبها ومجتمعه لأنها تعكس أبرز جوانب الحياة.

ولهذا رأى الباحث أبو القاسم سعد الله بأنّ" الباحث الاجتماعي يمكن أن يجد في الرحلة مادة ثرية"[3] ويبدو أنه كان صائبا في ذلك على اعتبار أننا نجد في الرحلة أمورا هامة فقد تحدّث فيها صاحبها عن مجموعة من الخطب وعقود الزواج وأنواع الصداق وشروط الزواج وغيرها من الأمور التي يفتقر الباحث وجودها في مصادر

---

[1] عميراني(احميدة): الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني، مذكرات تيدنا أنموذجا، دار الهدى، الجزائر، 2003، ص09.

[2] حليفي(شعيب): الرحلة في الأدب العربي، ص 74.

[3] سعد الله(أبو القاسم): أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص234.

أخرى، ولعلّ من أبرز العقود التي احتوتها الرحلة ذلك العقد الذي اقتبسنا منه هذا النص الذي جاء فيه:" فخطب في بيت مروءة لا تنكر، وحضرة حسب ونسب هي من نار على علم أظهر، ومن قفا نبك أشهر، الكريمة المصونة، الدرة المكنونة، رقية بنت الشيخ الإمام، العالم العلامة الهمام، سليل العلماء الأعلام، أبي عبد الله السيد محمد المقري، البكر في حجر والدها المذكور على صداق مبارك ميمون قدره بين قيمة نقد محضر وحال منظر وكال مؤخر ألف دينار واحد ومائتا دينار، اثنتان، كلها جزائرية خمسينية العدد من سكة التاريخ، وقفطانان اثنان أحدهما موبر، والآخر أطلس، وأربع أواق جوهرا، وأربعة أفراد ستيني، وأمتان اثنتان من رقيق السودان، وأربعة قناطير صوف..." [1].

إنّ المتأمل في النص يلفي أنّه يحوي معلومات ذات فائدة كبيرة بالنسبة لعلماء الاجتماع ذلك أنّه يفصل الحديث عن الصداق فيذكر قيمته نقدا كما يذكر نوع هذا الصداق وهو المتمثل في القفاطين والجواهر والصوف هذا فضلا عن شرط الحسب والنسب ، ومن خلال هذا النص نستطيع معرفة العملة التي كانت متداولة في وقته وهي الدينار والخمسينية الجزائرية كما استطعنا التعرف نوع هذا الصداق، وإمكانيات كلّ طبقة في ذلك.

وقد علّق الباحث أبو القاسم سعد الله على العقود التي أوردها ابن حمادوش في رحلته في قوله :" يجد دارسوا الحياة النسوية والمنزلية ضالتهم في القفاطين الموّبرة أو الأطلسية وأنواع الجواهر، وإماء السودان، وقناطر الصوف، وغيرها مما كان يقدم صداقا للزوجة حسب حالتها الاجتماعية، وحسب سنها أيضا بكرا أو ثيبا، وهذه جوانب من الحياة الاجتماعية ما يزال يفتقدها الباحثون في تاريخ الجزائر"[2].

والملاحظ أنّ ابن حمادوش قد أفاض في حديثه عن الخطب وعقود الزواج ولعلّ ما يؤكد ذلك ذكره لأنواعها الكثيرة فمن هذه العقود ما هو لبكر ومنها ما هو لثيّب هذا فضلا عن عقود أخرى منها عقد نكاح أبكم أصم وعقد لعاهر وقت التوبة

---

[1] ابن حمادوش(عبد الرزاق): الرحلة، ص 239.

[2] سعد الله(أبو القاسم): الطبيب الرّحالة ابن حمادوش الجزائري، ص66.

كما ذكر شروط البكر اليتيمة فقال:" وتحتاج البكر اليتيمة إلى النطق بالرضا بالناكح إذا كان به عيب أو كانت حرة وهو مملوك ..." [1] ونلمس في هذا الكلام أنّ المرأة كانت تملك نوعا من الحرية في اختيار الزوج والموافقة عليه بدليل أنّها كانت تشاور في أمر زواجها كما هو وارد في العبارة التالية " بعد أن شاورها في ذلك وأعلمها بالناكح المذكور زوجا وبما بذل له مهرا، فصمتت عند ذلك صمتا تحقق به رضاها...."[2].

وهكذا تمكنا من رسم صورة عن العقود التي كانت تبرم في الجزائر في عصر ابن حمادوش كما تعرفنا على شروط الزواج والمهر ومتعلقاتهما.

ولم يقتصر حديث ابن حمادوش في الجانب الاجتماعي على العقود والخطب بل إنّنا نجده يذكر عادات أخرى منها صيغة صلوات وأدعية معهودة عند أهل الجزائر عند ختم صحيح البخاري في قوله:" فلما التقينا، بعد صلاة ظهر هذا اليوم، لنلقف بخاري الدراية، بعد الصلاة، فقرأ المملي دعاء الوضوء قبل الغسل، ثم تبع الشيخ شرح ذلك، وصلينا على النبي الصلاة المعهودة في الجزائر عقب البخاري، وهي اللّهم صلي أفضل صلاة على أشرف مخلوقاتك، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، عدد معلوماتك ومداد كلماتك كلما ذكرك وذكره الذاكرون وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون ورش الخدم ماء الورد على الحاضرين بالجامع الكبير..."[3]

كما ذكر عادتهم ليلة القدر وليلة المولد النبوي " فقد كان متولي الجامع الكبير يفرغ ليلة القدر قنطارا أو أكثر من الشمع يفرقه على ثلاثين شمعة خضراء، ثم يطاف بهذه الشموع في اتجاه دار المنفي أو الوكيل ومنها إلى دار الإمارة عبر

---

[1] ابن حمادوش(عبد الرزاق): الرحلة، ص 251.

[2] المصدر نفسه، ص 249.

[3] المصدر نفسه، ص125.

الشوارع المزينة، وهم يرفعون أصواتهم بالأناشيد الدينية، ثم يعودون إلى الجامع من طريق أخرى، وكان يقام مثل ذلك في ضريح عبد الرحمن الثعالبي أيضا"[1].

ب- الحياة السياسية :

لقد ساعدت رحلة ابن حمادوش في تصوير كثير من الأحداث والأوضاع التي كانت عليها الجزائر أثناء القرن الثامن عشر على اعتبار أنّ صاحبها قد عاصر معظم هذه الأحداث وتأثّر بها كما تذكر المصادر، ولعلّ أبرز الحوادث السياسية الداخلية التي ورد ذكرها في الرحلة بشيء من التفصيل ثورة زواوة * وهي واقعة صورها ابن حمادوش الجزائري بشيء من العاطفة والتأثر فبعد أن تحدّث عن اقتران المريخ وزحل يوم الجمعة أول شهر ربيع الأول سنة 1158 قال:"فوافق ذلك نفوذ وعد الله بطائفة من القبائل من زواوة أن نافقوا (أي ثاروا) على القائد محمد، قائد سباو الذّباح، فبعث إلى إبراهيم باشا فأمده بآغا الصبايحية(الفرسان) معه حانبة(فرقة) نحو المائتي يولداش **، فلم يأت اجتماع الشمس والقمر الآتي حتى هلكت دشور(قرى) القبائل، وبعث يوم الثلاثاء ثالث ربيع الثاني بثمانية وسبعين رأسا على

---

[1] ابن حمادوش(عبد الرزاق): الرحلة، ص126.

* هي ثورة حدثت خلال القرن الثاني عشر، حيث كانت منطقة زواوة ممتنعة عن العثمانيين، كما كانت تدفع لهم ضريبة الاستقلال الداخلي، ولعل محاولة العثمانيين التوغل في زواوة وفرض ضرائب جديدة على أهلها نتيجة النقص في غنائم البحر هو العامل الرئيسي وراء هذه الثورة، ففي سنة 1158هـ خرج أهل زواوة ضد القائد العثماني محمد فريرا المشهور بالذّباح ولأهمية زواوة أنشأ العثمانيون قيادة خاصة في سباو التي فصلوها عن إقليم التيطري فاستولى الزواويون على برج قلعة بوغني، وبعد شهر استولوا على برج حمزة (البويرة اليوم) وتمكنوا من قتل قائد الحامية العثمانية في سباو وهو محمد الذّباح المذكور، وقد استمرت الثورة مدة سنة على الأقل وأزعجت السلطات العثمانية فجندت لها جيشا من العاصمة بقيادة شريف آغا ومن المدية بقيادة الباي سفطان، ومن قسنطينة بقيادة الباي أحمد القلي، وبذلك وضع حد لهذه الثورة الخطيرة على الوجود العثماني. ينظر سعد الله(أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص210.

** اليولداش هم الجنود العاديون من المشاة.

الجمال وأردفها من الغد بأربعة عشر رأسا، ونهبوا أمتعتهم وأموالهم وحرقوا دشورهم، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم"[1].

ولعلّ العبارة الأخيرة في هذه الفقرة توحي بحجم الخسائر التي خلّفتها هذه الثورة وحسب هذه الرواية فإن الثورة في الواقع لم تنته عندئذ وإنما هي البداية فقط، فابن حمادوش لا يتحدث عن مقتل القائد الذّباح، كما أنّه لا يتحدّث عن اتّساع ميدان الثورة بعد ذلك، ولكن كان يركّز على سوء المعاملة التي عامل بها العثمانيون الثوار حيث نهبوا أمتعتهم وأموالهم، وأحرقوا ممتلكاتهم، ونحب أن نشير هنا إلى أن ابن حمادوش في كتاباته لم يكن يكشف عن رأيه في العثمانيين، بل كان يكتفي بتسجيل الحوادث بشكل محايد.

وقد وردت في الرحلة أخبار عن الجزائر مفادها أنّ النصارى(ولم يحدد هويتهم ولعله يعني بهم الإسبان) رفضوا قبول فدية المسلمين الذين كانوا أسرى عندهم، ولاسيما مشاهير الرياس مثل ابن الحاج موسى، وأدّى هذا الموقف إلى غضب الباشا الذي قرّر غلق كنيستهم وهدّد بهدمها إن لم يقبلوا بالصلح، ولم يخبر ابن حمادوش بما وقع بعد ذلك واكتفى بالقول "وها نحن منتظرون ما يقع"[2].

ومن الأخبار التي توضّح علاقات حكام الجزائر بالسلطان العثماني ما رواه ابن حمادوش من أنّ السلطان قد أرسل مندوبا عنه إلى الجزائر، فلم يرحب به المسؤولون ولم يستقبلوه فبات ليلته في المرسى ثمّ دخل المدينة وحده.

ورغم أنّ الباشوات قد استبدوا بالحكم، كما ذكر ابن حمادوش ، فإنّهم ظلوا يهادون السلطان ويسترضونه وينتظرون منه مباركة أعمالهم في الجزائر ولاسيما أمور التولية. ومن ذلك ما رواه ابن حمادوش نفسه من أن الباشا إبراهيم الذي تولّى سنة (1158هـ/1745م) قد أرسل إلى السلطان مجموعة من الهدايا منها أربعين نصرانيا، وثمانية مكاحل(بنادق) بالإضافة إلى أمور أخرى نفيسة.[3]

---

[1] ابن حمادوش (عبد الرزاق): الرحلة، ص 163.

[2] المصدر نفسه، ص119.

[3] ينظر المصدر نفسه، ص233.

وإبراهيم باشا هو آخر سبعين باشا من الولاة العثمانيين بالجزائر الذين أورد ابن حمادوش أسماءهم وتاريخ ولايتهم، مبتدئا بإسحاق باشا سنة 915هـ/1509م مرورا بعبد الله بيلك باش الذي قال عنه أنه أول من استبد بالملك سنة 1064هـ/ 1653م، ومن أخبار هؤلاء الباشوات في الرحلة رفع الأعلام الخضر على الصوامع عند تولية أحدهم، وحمل جثمان الميت منهم إلى الجامع الكبير للصلاة عليه وقراءة القرآن، وشيوع الفساد بينهم حتى أنّ إبراهيم باشا المذكور كان مع أهله على سفاح قبل التولية، وبعدها نصحه مستشاروه بإفشائه مخافة إشاعة الفسوق بين النّاس.[1]

وتعتبر قاعدة الحجر الصحي من السياسات التي كانت تمارسها الدولة العثمانية على الحجاج الجزائريين باعتبارها أهم وسيلة حماية، فقد كان العثمانيون يبقون السفن الواردة فترة معلومة قبل أن يسمحوا لها بالدخول إلى الميناء ولركابها بالنزول سواء كانت السفينة قادمة من بلاد إسلامية أو من بلاد مسيحية وقد ذكر ابن حمادوش أنّ" مركب الحجاج قد قدم من الإسكندرية وفيه الوباء فأصدر الباشا أمره بمنع المركب من دخول الميناء إلاّ بعد مضي خمسة عشر يوما وبعد انقضائها أذن له بالدخول ".[2]أي بعد أن تأكد من سلامة الركاب لضمان عدم انتشار الوباء.

ومن الحوادث السياسية التي أوردها ابن حمادوش في رحلته ذلك الصلح الذي انعقد بين الجزائر والدانمرك خلال صيف سنة 1159هـ/1746م ولكنه لم يذكر تفاصيل هذا الصلح ولا كيفية توقيعه.[3]

أمّا عن السياسة الخارجية ولاسيما مع الجارتين المغرب وتونس فابن حمادوش يذكر حادثة على ذلك ويحكيها بشيء من الامتنان لله على قضائه، ذلك أنه قد حلّ بالجزائر في وقت واحد القائد عبد الواحد ابن الباشا أحمد الريفي باشا تطوان فارا من السلطان عبد الله الذي قتل أباه، كما حلّ بها محمد باي وأخوه محمود باي فارين من تونس من ابن عمها علي باي وقد صلوا جميعا رفقة الباشا في الجامع الكبير بمدينة

---

[1] ينظر ابن حمادوش(عبد الرزاق): ص 236.

[2] المصدر نفسه، ص121.

[3] ينظر المصدر نفسه، ص 257.

الجزائر وفي هذا يقول ابن حمادوش:"وكان سابقا أن يجتمع حاكم تونس وحاكم تطوان على الجزائر فسبق اللطف فكان اجتماعهما تحت أمر حاكمنا لا فوقه"[1].

وبعد فهذه أهم الحوادث السياسية التي تمكننا من رسم صورة عن واقع الحياة السياسية في القرن الثامن عشر وهي حوادث تفيد بلا شكّ الباحثين والمؤرخين للجزائر في تلك الفترة التي لم يُكتَبْ عنها إلاّ القليل وبهذا عدّت هذه الرحلة وثيقة تاريخية فضلا عن كونها وثيقة اجتماعية وهو ما يزيد من قيمتها.

ج- الحياة العلمية والثقافية :

يبدو أنّ اهتمام ابن حمادوش بالجانب الثقافي في رحلته قد فاق اهتمامه بالجوانب الأخرى ومما يؤكد ذلك إيراده لأخبار هامة عن بعض العلماء الذين لا نجد لهم ذكرا في مؤلفات أخرى وهو الأمر الذي يدفعنا إلى القول بأنّ رحلة ابن حمادوش تعتبر نادرة في بابها لأنها تعتبر المصدر الوحيد الذي يكشف عن الحياة الثقافية في الجزائر أثناء القرن الثامن عشر فهي تفيدنا في معرفة أخبار العلماء الذين برزوا في ذلك العصر واهتماماتهم.

والقارئ للرحلة يجد أنّ صاحبها قد أطال حديثه عن بعض العلماء كابن ميمون الذي جالسه ودرس عليه ومعه وقد كان يشغل وظائف رسمية وجاهاً لدى العلماء والحكماء ممّا جعل داره منتدى للأدباء ويعتبر ابن حمادوش من أكثر المترددين على مثل هذه المنتديات حيث كان يجتمع مع المفتي الحنفي ابن علي الذي كان يتفاخر عليه ويدعي بأنّه أكثر منه علما وأشعر منه.[2]

وبينما كانت علاقة ابن حمادوش بابن علي غير حسنة كانت علاقته بالأديب الشاعر أحمد ابن عمار جيدة وكنا قد أشرنا في الفصل الثاني إلى أنّه كتب لابن حمادوش تقريظا لكتاب الدرر على المختصر كما كان لابن حمادوش علاقة حسنة مع العالم عبد الرحمن الشارف الذي كتب له شهادة على تصحيحه للكتاب المذكور على الشيخ أحمد الورززي المغربي.

---

[1] المصدر السابق، ص257.

[2] المصدر السابق، ص216.

ومن العلماء الذين برزوا في ذلك العصر يذكر ابن حمادوش منهم المفتي محمد ابن حسين، وقاضي قسنطينة محمد الحنفي، والمفتي عبد الرحمن المرتضى، والمفتي الحاج محي الدين الرزوق، والقاضي ابن المسيسني، وهناك بالإضافة إلى ذلك عدد آخر من القراء والأدباء الذين لم يكونوا عندئذ أصحاب مناصب ولكنّهم كانوا من رجال العلم نذكر منهم: أحمد العمالي، ومحمد ابن سيدي الهادي، وأحمد البوني، وابنه أحمد الرزوق، ومحمد بن المسيسني، وأبو القاسم بن يوسف الحسني، وعبد الملك بن إبراهيم ، والحاج أحمد ابن مسعود .

وكان ابن حمادوش يقرأ مع بعض هؤلاء ويتراسل مع آخرين منهم، وكانوا جميعا يكونون في الواقع نوعا من الطبقة المثقفة التي تتعايش وتتصاهر وتتنافس طموحا إلى السلطة والجاه .

وممّا له علاقة بالحياة العلمية والثقافية تلك المقارنة التي أجراها ابن حمادوش بين طلبة البوادي والحواضر حيث يقول:" وفي يوم الثلاثاء تكلمت مع بعض طلبة البوادي في أمر العلم، حتى فلتت منّي الكلمة، فقلت له : إنّ طلبة البوادي يغلطون في أنفسهم، ومع أنّ علمهم أقلّ من دعوتهم ونرى كثيرا منهم يدّعي النهاية عندهم ويدرس فإذا أتى الحاضرة لا يحسن أن يقرأ مع طلبتها مبتدئا فضلا عن أن يكون منتهيا، ولم أرد الحط من قدرهم وإنما أردت أنّ طلبة الحاضرة علومهم مشتركة فقد تهيّأ لهم المأخذ من كتب ومشايخ وإخوان ..."[1] ونستشف من خلال كلامه أنّ طلبة الحواضر أذكى وأغزر علما من طلبة البوادي الذين يدعون مبلغهم فيه النهاية ولعلّ اعتقادهم هذا فيه نوع من الغرور.

وبهذا فقد استطاع ابن حمادوش من خلال ما كتبه في رحلته أن يقدم لنا صورة عن المغرب والجزائر في القرن الثامن عشر وإن كانت هذه الصورة تفتقر إلى بعض العناصر كحديثه عن البنايات وصفه للمآثر وكذا حديثه عن الجوانب الاقتصادية التي لم يخصص لها ابن حمادوش في رحلته حديثا كثيرا لكنها رغم ذلك استطاعت أن ترسم لنا ملامح هامة عن التقارب بين المجتمعين في بعض العادات واختلافهما

[1] المصدر السابق، ص143.

في البعض الآخر كما أنّها استطاعت أن تميط اللّثام عن مختلف القضايا التي تشغل المؤرخين والباحثين في علم الاجتماع **والإثنوغرافيا** على اعتبار أنّ المصادر التي تتحدث عن هذه الأمور قليلة جدا خاصة إذا ما تعلّق الأمر بالفترة العثمانية التي ضاعت أغلب مصادرها .

إنّ الصورة التي نقلها لنا ابن حمادوش عن المغرب والجزائر تنمّ عن وصف حيّ ومشاهدات واقعية لم يتعمّد في رسمها ابن حمادوش الخيال بل صوّر فيها الحقائق كما رآها أو سمعها وبهذا يمكن اعتبارها وثيقة اجتماعية وتاريخية يجب على كلّ باحث راغب في معرفة هذين البلدين وفي هذه الفترة على وجه التحديد الركون إليها.

وبعد فليست هذه القراءة استقصاءً مكتملا لصورة المغرب والجزائر من خلال رحلة ابن حمادوش لأنّ هذه الرحلة غنية جدا كما أنّ تمظهرات هذه الأخيرة لا تتوقف عند النماذج التي استقيناها بل هي كثيرة جدا إذ لا يمكن حصرها في صفحات قليلة بل هي تحتاج إلى دراسة مستقلة وبحوث مستفيضة.

قيمـــة الرحلـــــة:

لا مندوحة لنا من الاعتراف بأنّ رحلة ابن حمادوش تحتوي على قيمة أدبية وعلمية لا تضاهى ذلك أنّ قارئها يجد فيها ما يحقق المتعة كما يجد فيها الفائدة أيضا أمّا المتعة فتتمثل في احتوائها على عدد غير قليل من الأمثال والحكم والأشعار والأساطير وغيرها من الأمور التي سبق وأن تحدّثنا عنها، أمّا الفائدة فتتمثّل في احتوائها على معارف جمة تخص مختلف جوانب الحياة الاجتماعية السياسية الدينية والثقافية للمغرب والجزائر خلال القرن الثامن عشر .

وقد نوّه الباحث أبو القاسم سعد الله في مجموعة من كتاباته بقيمة هذا الأثر الأدبي حيث قال:" لا شكّ أنّ رحلة ابن حمادوش المغربية تعتبر مصدرا هاما عن المغرب في ذلك العهد لأهمية النصوص التي أوردها فيها ومشاهداته عيانا ما حدث فيها من ثورات وتقاليد اجتماعية ونشاط العلماء ونحو ذلك" [1] ولعلّ ما يؤكد ذلك ما أشرنا إليه في بعض النماذج التي استقيناها من الرحلة.

ويؤكد قيمة هذه الرحلة ما ورد في كتابه "تجارب في الأدب والرحلة" الذي قال فيه:" وإذا كان القرن الثامن عشر قد ترك لنا رحلتين جزائريتين نحو المشرق وهما رحلة ابن عمار ورحلة الورثيلاني فإنّه قد ترك لنا رحلة يتيمة نحو المغرب وهي رحلة ابن حمادوش التي أقوم بتحقيقها وليس ابن حمادوش هو أول جزائري يتوجه إلى المغرب فقد سبقه كثيرون كابن قنفذ والونشريسي والمقري ولحقه كثيرون كالأمير عبد القادر والمشرفي ولكنّه أول جزائري حسب علمنا ترك لنا وصفا دقيقا لمدن تطوان ومكناس وفاس وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية خلال القرن الثامن عشر"[2] .

والحقّ أنّنا نجد في هذا الحكم إنصافا لابن حمادوش في رحلته وتنويها بأهميتها خاصة وأنّها تعتبر المصدر الوحيد الذي يحكي ويصف المغرب في تلك الفترة

---

[1] سعد الله (أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص399.

[2] سعد الله (أبو القاسم): تجارب في الأدب والرحلة،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص204.

وعلى هذا الأساس تعتبر رحلة ابن حمادوش وثيقة نادرة قلما يعثر الباحثون في علم الاجتماع والتاريخ عليها وكلام سعد الله في هذا الباب يعدّ شهادة على ذلك.

وبهذا يمكن أن نقول بأنّ لهذه الرحلة قيمتان قيمة علمية وقيمة أدبية كما أنّ رحلته تساهم في تثقيف القارئ وإثراء فكره وتأملاته، ذلك أنّ صاحبها قد صوّر فيها كثيرا من ملامح العصر الذي قام فيه برحلته وثقافة البلد الذي زاره وهو المغرب وأحوال الشعوب التي اختلط بها وهي بهذا الاعتبار تعتبر مصدرا لوصف الثقافات الإنسانية ولعلّ هذا ما حدا بالباحث سيد حامد النّساج في وصفه لقيمة الرحلات في قوله بأنّها:" تعدّ من أكثر المدارس تثقيفا للإنسان"[1] نظرا لكونها تحوي قدرا كبيرا من المعارف .

ومن هذا المنطلق تعتبر رحلة ابن حمادوش جزءاً من تراث الجزائر العربي الإسلامي، الذي طالما نفاه الدارسون الأجانب وشككوا في قيمته ، ورغم أنّ هذه الرحلة تشكو من بعض النقائص كافتقارها لوحدة الموضوع وضعف منهجها واعتمادها على تقنية الاستطراد إلاّ أنّها تبقى مصدرا لا يستغنى عنه لفهم الحياة الاجتماعية والثقافية وحتّى السياسية للجزائر والمغرب ذلك أنّ ما جاء فيها من أخبار اجتماعية (العادات والتقاليد، والأسعار، والنقود، والمهور ، وإحياء المولد النبوي وليلة القدر، والأعياد...إلخ) يعتبر بحق مادة أولية بالنسبة للباحثين في القرن الثامن عشر، كما أنّ ما ورد فيها من أخبار عن علماء عصره وإجازاتهم وعلاقاتهم ببعضهم البعض وتنافسهم ومقدار معارفهم هو ما يزيد هذه الرحلة أهمية.

أمّا إذا تحدّثنا عن الحياة السياسية وجدنا هذه الرحلة تعكس أحداثا ضرورية لكل مقتحم لتاريخ المغرب والجزائر فحديثه عن ثورة أحمد الريفي يعتبر مصدرا أساسيا لفهم هذه الثورة .

ويبدو أنّ هذه الرحلة قد استطاعت أن تميط اللّثام عن حياة صاحبها فهي مرآة حياته ونشاطه وتفكيره –رغم أنّها غير كاملة– خاصة وأنّ المعاصرين لابن حمادوش لم يترجموا له والقارئ للرحلة يتمكن من معرفة الكثير من الأخبار عنه

---

[1] النّساج (سيد حامد): مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، ص08.

وعن نشاطاته العلمية وتآليفه وأسفاره وعلاقاته وإن كانت لا تجيب على كلّ الأسئلة المتعلقة به فإنّها لا شكّ تلقي أضواء على بعض الجوانب الخفية من حياته، ومن خلالها نستطيع أن نقول إننا نعرف الكثير عن ابن حمادوش ولو أمكننا الاطلاع على كلّ أجزاء الرحلة لاستطعنا رسم صورة كاملة لصاحبها .

يحفل هذا النص الرحلي بمادة غزيرة من أسماء الأماكن وبعض التراكيب العامية والمصطلحات المحلية التي تزيد في قيمتها لدى الباحثين فقد أورد فيها ابن حمادوش أسماء من قبيل الحامة والتالاملي وجبل بومعزة الواقع تحت جبل بوزريعة وسباو وغير ذلك من الأماكن التي تهّم الجغرافيين والمؤرخين بل وحتّى أهل اللّغة .

والقارئ للرحلة يستطيع التعرف على أسماء الأعشاب التي كان يدرسها ابن حمادوش ويتعلم منها العلاج، كما يستطيع التعرف على ألقاب السلاطين العثمانيين وأسمائهم بشيء من التفصيل .

ولعلّ ما يزيد الرحلة أهمية هو احتواؤها على مثل هذه التراكيب التي يروي فيها ابن حمادوش أن أمه قد عيرته حين غضبت منه فقالت :" يا ليتني لم ألدكم ذكورا لسوء سعدكم "[1] ونحن نعلم أنّ عبارة لسوء سعدكم ما تزال تتداول إلى اليوم في حديث النسوة ، وإن كانت هذه العبارة عامية إلّا أنّها ذات أهمية في نظرنا لدارس المجتمع الجزائري في القرن الثامن عشر.

والباحث عن تراجم العلماء خلال الفترة المذكورة يجد في الرحلة مادة هامة خاصة وأنّ رحلة ابن حمادوش كانت علمية فمن خلالها استطعنا التعرف على ابن عمار وابن علي وابن ميمون والورززي وغيرهم من العلماء الذين كنا نجهل وجودهم.

وتجدر الإشارة إلى أنّ النقول التي أوردها ابن حمادوش في رحلته من وثائق وكتب تعطي لرحلته قيمة أخرى تنضاف إلى قيمتها كرحلة لأنّه بالرّغم من أنّ بعض الكتب قد طبعت كالإنس الجليل إلّا أنّ ما بقي من هذه النقول ولاسيما الأسانيد والشهادات وبعض النصوص التي تعتبر على درجة قصوى من الأهمية .

---

[1] ابن حمادوش (عبد الرزاق): الرحلة، ص 115.

ورغم الضعف الذي يعتري المنهج في هذه الرحلة إلاّ أنّ ما ورد فيها من مزايا يكفّر عنها كلّ تلك العيوب بحيث تبقى الأثر الوحيد والكتاب النادر الذي استطاع أن يجمع فيه صاحبه بين المتعة والفائدة في آن واحد فغدت رحلته عملة نادرة وجزءا من التراث العربي الإسلامي للمغرب والجزائر ومصدرا هامّا لتاريخ هذين القطرين في ظلّ غياب المدونات والمصادر التي تحكي عن هذين البلدين وبالأخص في الفترة التي تحدّث عنها ابن حمادوش، كما أنّها تعكس صورة لصاحبها وعصره وثقافته .

الخاتمـــــة

لقد توصلنا من خلال رحلتنا مع هذا البحث إلى جملة من النتائج نلّخصها كالآتي:

- إنّ مفهوم أدب الرحلة مفهوم غير قار ومختلف حوله، إذ تتقاسمه مجموعة من الاختصاصات كالتاريخ والجغرافيا، الاثنوغرافيا، وعلم الاجتماع إلاّ أنّ الحقل الأكثر اقترابا من الرحلة هو الأدب على اعتبار أنّ فنّ السرد جزء منه.
- أدب الرحلة أدب مفتوح له القدرة على الجمع بين عدّة أشكال أدبية فهو يمتح من السيرة والقصة والتاريخ ممّا يمكّن القول بأنّه نصّ جامع يفلت من كلّ تأطير وتصنيف.
- لقد استطاع أدب الرحلة أن يتخطّى كلّ القواعد والقيود مخترقا بذلك نظام الأجناس، وبهذا يمكن القول بأنّ أدب الرحلات هو أدب غير محدود ومن غير الممكن أن يتحدّد أو يصنّف في خانة معيّنة والدليل على ذلك اللّبس الذي وقع فيه الباحثون أثناء حديثهم عن إشكالية تجنيس هذا الصنف من الأدب.
- يعدّ نص رحلة ابن حمادوش نصا هجينا ينماز بتعدّد موضوعاته وتشعبها وهو يحوي بين طيّاته مجموعة من المعارف الاجتماعية والتاريخية قد يتعذّر على الباحثين في علم الاجتماع الحصول عليها من مؤلّف آخر خاصّة إذا ما تعلّق الأمر بالفترة العثمانية.

- استطاعت رحلة ابن حمادوش أن تجيب عن كثير من الأسئلة التي تقلق المؤرخين والباحثين، كما أنّها شكّلت ردّا على الذين قالوا بغياب المدونات الجزائرية التي تحكي عن صورة الجزائر في القرن الثامن، وبأنّ أغلب مصادر هذه الصورة مستوحاة من مراجع أوروبية.
- لقد أسهم الجزائريون مساهمات واضحة في كتابة الرحلات فكوّنت رحلاتهم مصادر تاريخية وجغرافية لا يمكن الاستغناء عنها، ولا الاستهانة بقيمتها.
- لقد استطاع ابن حمادوش من خلال هذه الرحلة أن يعكس اهتمامات واضحة بميدان الحياة الاجتماعية والمظاهر الاقتصادية ومختلف الأنشطة ممّا يدّل دلالة واضحة على واقعية الأحداث التي رواها فيها، كما يدّل ذلك على سعة اطلاعه وخبرته في معاينة الوقائع والمواقع وفي تصوير حياة النّاس في ذلك العصر.
- لقد تمكّن ابن حمادوش من خلال رحلته من رسم صورة حيّة عن المغرب والجزائر بواقعية متناهية وصدق ووصف حيّ ينّم عن عبقريّة هذا الرّحالة ودقّة ملاحظاته وحسن التقاطه للصور والمواقف، فرصدت رحلته بذلك تنوّع المعالم الحضارية في مختلف الجوانب الحياتية في القطرين السالفين وعكست صورة واضحة عن أحوال الشعبين وعاداتهما وتقاليدهما.

قائمة المصادر والمراجع

* القرآن الكريم: رواية حفص عن عاصم.

المصـــــــادروالمـــــــراجع:

أ- مصـــــــــادرالبحث:

1- ابن حمادوش(عبد الرزاق): رحلة ابن حمادوش، تحقيق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983.

ب- المـراجـــــــــع:

1- إبراهيم(خليل): في نظرية الأدب علم النص، بحوث وقراءات، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010.

2- الأعشى(أبو بصير ميمون بن قيس): الديوان، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992.

3- أنساعد(سميرة): الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى، الجزائر، 2009.

4- أنساعد(سميرة): الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر، الوكالة الإفريقية للإنتاج السينمائي والثقافي، الجزائر، ط1، 2011.

5- بالحميسي(مولاي): الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط2، 1981.

6- البخاري(أبو عبد الله محمد بن إسماعيل): صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، ط2، 2007.

7- ابن بطوطة(محمد بن عبد الله): رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الجزء الأوّل والثاني، دار الفكر، بيروت، ط1، دت.

8- بلعابد(عبد الحق): عتبات جيرار جنيت من النص إلى المناص، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008.

9- بن قينة(عمر): في الأدب الجزائري الحديث تأريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.

10- بن قينة(عمر): الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999.

11- بن قينة(عمر): أعلام وأعمال في الفكر والثقافة والأدب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000.

12- بن قينة(عمر): الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1995.

13- بولعسل(كمال): رحلة أبو حامد الغرناطي دراسة في الفضاء، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، دت.

14- التازي(عبد الهادي): ابن بطوطة أمير الرحالة، الدار المصرية، القاهرة، 2002.

15- التجيبي(القاسم بن يوسف): مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، دط، 1975.

16- جبران(محمد مسعود): فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، المجلّد الثاني، دار الدار الثقافية، ط1، 2009.

17- ابن جبير(محمد): ابن رحلة ابن جبير، موفم للنّشر، الجزائر، دط، 1988.

18- الجحمة(نواف عبد العزيز): رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربي، من القرن السادس إلى القرن الثامن، دار السويدي، الإمارات العربية المتحدة، ط 1، 2008.

19- حسني(محمود حسين): أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط 2، 1983.

20- حليفي(شعيب):الرحلة في الأدب العربي، التجنّس، آليات الكتابة، خطاب المتخيّل، رؤية للنّشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006.

21- ابن حنفية(عبد القادر عابدين): أبو راس الناصري المعسكري حياته وتصوّفه، مكتبة الرشاد للطباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2004.

22- ابن خلدون(عبد الرحمن): المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000.

23- دودو(أبو العيد): الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، لمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

24- ذاكر(عبد النبي): الرحلة العربية إلى أوروبا وأمريكا والبلاد الروسية خلال القرنيين التاسع عشر والعشرين، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ط 1، 2005.

25- أبو راس(محمد ناصر): فتح الإله ومنّته في التّحدّث بفضل ربّي ونعمته، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.

26- الركيبي(عبد الله): تطوّر النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1974.

27- الركيبي(عبد الله): الجزائر في عيون الرّحالة الإنجليز، المجلّد الرابع، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2011.

28- زكي(محمد حسين): الرّحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت، .1981

29- سعد الله(أبو القاسم): الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري حياته وأثاره، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.

30- سعد الله(أبو القاسم): أبحاث وآرا ء في تاريخ الجزائر، ج 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1990.

31- سعد الله(أبو القاسم): أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، .1990

32- سعد الله(أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي، ج 7، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998.

33- سعد الله(أبو القاسم): تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

34- أبو سعد(أحمد): أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي، دار الشرق الجديد، بيروت، ط1، 1961.

35- شاوش(محمد بن رمضان): إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، المجلّد الثاني، ج3و4، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، دت.

36- الشوابكة عبد الرحمن(نوال): الرحلات الأندلسية والمغربية حتّى نهاية القرن التّاسع الهجري، دار المامون للنّشر والتوزيع، عمان، ط1، 2008.

37- ضيف(شوقي): الرحلات، دار المعارف، القاهرة، دط، 1991.

38- ضيف(بشير): فهرست معلمة التّراث الجزائري بين القديم والحديث، منشورات ثالة، الجزائر، .2007

39- العبدري(محمد): الرحلة المغربية، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، ط1، 2007.

40- العبيدي(سلمان علوان): البناء الفني في القصيدة الجديدة، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، 2011.

41- العلوي(بنسعيد): أوروبا في مرآة المرحلة صورة الآخر في الرحلة المغربية المعاصرة، دار السويدي، أبو ظبي، ط1، 2006.

42- ابن عمار(أحمد): نبذة من الكتاب المسمى نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مطبعة بيير فونتانة، الجزائر، 1902.

43- عميراني(احميدة): الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني، مذكرات تيدنا أنموذجا، دار الهدى، الجزائر، 2003.

44- عوض(محمد مؤنس): الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط 1، 1990.

45- غنيمي هلال(محمد): الأدب المقارن، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط3، 1998.

46- فتوح(محمد أحمد): النثر الفني في العصر الأموي، مكتبة الشباب، القاهرة، 1984.

47- القط(مصطفى البشير): مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم، دار اليازوري، الأردن، 2009.

48- قنديل(فؤاد): أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط1، 2002.

49- ابن قنفذ القسنطيني (أبو العباس): أنس الفقير وعزّ الحقير، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965.

50- ابن قنفذ القسنطيني(أبو العباس): الوفيات، تحقيق عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والنشر والترجمة، بيروت، ط3، 1982.

51- كنون(عبد الله): النبوغ المغربي في الأدب العربي، الجزء الأوّل، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1961.

52- كواتي(مسعود): أعلام مدينة الجزائر ومتيجة، دار الحضارة، الجزائر،ط 1، 2007.

53- مؤدن(عبد الرحيم): الرحلة في الأدب المغربي، النص والنوع والسياق، أفريقيا الشرق، المغرب، 2006.

54- مؤدن(عبد الرحيم): الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، دار السويدي، أبو ظبي، ط1، 2006.

55- مباركي(جمال): التناص وجمالياته في الشعر الجزائري، المعاصر، إصدارات رابطة الإبداع الثقافية، دار هومة، الجزائر، 2003.

56- المجاجي(عبد الرحمن): الرحلة ، مخطوط، المكتبة الوطنية الجزائرية رقم 1564، 1565، وجه الورقة رقم 04.

57- مرتاض(عبد الملك): فنون النثر الأدبي في الجزائر، 1931-1945، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

58- ابن المسايب التلمساني(محمد): الديوان، إعداد وتقديم الحفناوي السنوسي، وأسماء سيفاوي، الجزائر، 2007.

59- المسعودي(الحسن بن علي): مروج الذّهب ومعادن الجوهر، ج 1، موفم للنّشر، الجزائر، 1989.

60- مسلم(أبو الحسين بن الحجاج): صحيح مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت، المجلد 10، 1971.

61- المقري(أبو العباس): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968.

62- الموافي(ناصر عبد الرزاق): الرحلة في الأدب العربي حتّى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النّشر للجامعات، مصر، ط2، 1999.

63- الميداني(أبو الفضل): مجمع الأمثال، ج1، دار الجيل، بيروت، 1996.

64- النابغة الذبياني(زياد بن معاوية): الديوان، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1991.

65- ناظم(حسن): البنى الأسلوبية، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2002.

66- النّساج(سيد حامد): مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، دت، دط.

67- نصار(حسين): أدب الرحلة، دار نوبار للطباعة، القاهرة، ط1، 1991.

68- نقولا(زيادة): الجغرافيا والرحلات عند العرب، دار المعارف، تونس، 1994.

69- نواري سعودي(أبو زيد): جدلية الحركة والسكون، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2011.

70- الورثيلاني(الحسين): نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق محمد بن أبي شنب، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006.

ج- المراجع المترجمة:

1- ريموند(ويليمز): الكلمات المفاتيح، ترجمة نعيمان عثمان، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2007.

2- هنري باجو(دانييل): الأدب العام والمقارن، ترجمة غسّان السّيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، .1997

3- كراتشكوفسكي(أغناطيوس): تاريخ الأدب الجغرافي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1987.

د- المعاجم والموسوعات:

1- الحموي(ياقوت): معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، المجلد الأوّل، دار صادر، بيروت، .1977

2- شاكر(سليم): قاموس الأنتروبولوجيا، فصول في تاريخ علم الإنسان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1986.

3- ابن فارس(أحمد): مقاييس اللّغة، المجلّد الثاني، دار الجيل، بيروت، دط، دت.

الفيروز(أبادي): القاموس المحيط، ج3، دار الإحياء للكتب العربية، بيروت، 1985.

4- ابن منظور(محمد بن مكرم): لسان العرب، ج 11، دار صادر، بيروت، ط 3، 1994.

5- نويهض(عادل): معجم أعلام الجزائر، المكتب التجاري، بيروت، ط1، 1971.

6- شارلوت(سيموز): موسوعة علم الإنسان المفاهيم والمصطلحات الأنتروبولوجية، ترجمة علياء شكري ،دط، دت.

ه- المراجع الأكاديمية:

أ- رسائل الدكتوراه:

1- بن قينة(عمر): أدب الرحلة في النثر الجزائري الحديث، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 1991-1992.

2- حطاب(طانيا): إشكالية التّجنيس في الرواية العربية المعاصرة، دراسة في نماذج عربية، أطروحة دكتوراه، جامعة مستغانم، 2010- 2011.

3- سكران(عبد القادر): الرحلة الحبيبة الوهرانية الجامعة للطائف العرفانية لخديم الحضرة التيجانية ذات المواهب الربانية لأحمد بن الحاج العياشي سكيرج- تحقيق ودراسة- رسالة دكتوراه، جامعة وهران، 2007-2008.

ب- رسائل الماجستير:

1- زعيتر(حميدة): رحلة المجاجي عبد الرحمن بن الخروب، دراسة وتحقيق، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2008-2009.

2-عطاشي(عيسى): صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسية، صيف في الصحراء لفرومنتين أنموذجا، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر،2004 - 2005.

و- المجلات والدوريات:

1- حوليات التراث، مجلة دورية محكّمة تصدر عن كليّة الآداب والفنون، جامعة مستغانم، العدد 02، سبتمبر،.2004

2- مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، الجمهورية السورية، العدد 370، .1994

3- مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، المجلد 15، العدد 04، 1997.

4- مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 370، شباط، .2002

5- مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 396،نيسان، 2004.

6- مجلة وقائع سيميائية جديدة، المطبوعات الجامعية، ليموج فرنسا، العدد 82، 2002.

7- مجلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،المجلد 24، العدد 3، 1989.

الفهـــــــرس

فهرس الموضوعات:

الموضـــوع : **الصفحـــة:**

المقدمة.....ب

المدخل: أدب الرحلة وإشكالية التّجنيس.....02

الفصل الأوّل: أدب الرحلة عند العرب مفهومه ونشأته.....15

1- مفهوم أدب الرحلة لغة.....16

2- اصطلاحا.....17

3- نشأة أدب الرحلة عند العرب.....23

4- طبيعة الرحلة في الجزائر.....34

الفصل الثاني: رحلة ابن حمادوش بناؤها الفني وموضوعاتها.....46

1- سيرة ابن حمادوش وارتباطها بالرّحلة.....48

2- قراءة في العتبة.....50

3- البناء الفني للرحلة.....53

أ- اللّغة والأسلوب.....55

ب- المنهج.....63

ج- الوصف.....65

د- الفضاء الزماني والمكاني للرحلة.....68

هـ- الحوار.....70

4- مضامين الرحلة وموضوعاتها.....71

5- رحلاته وتأثيراتها على أدبه.....84

أ -التّفتّح الثقافي.....85

ب-خصوصيات أدب الرّحلة.....89

ج -تجنيسها.....91

الفصل الثالث: صورة المغرب والجزائر من خلال رحلة ابن حمادوش..... 93
1- صورة المغرب..... 98
أ- الحياة الاجتماعية..... 98
ب- الحياة السياسية..... 106
ج- الحياة العلمية والثقافية..... 108
2- صورة الجزائر:..... 112
أ- الحياة الاجتماعية..... 113
ب- الحياة السياسية..... 116
ج- الحياة العلمية والثقافية..... 119
3- قيمة الرحلة..... 122
الخاتمة..... 127
قائمة المصادر والمراجع..... 130
فهرس الموضوعات..... 141